الباب الثالث

الرسول صلى الله عليه وسلم في مكة

بنزول الوحي على الرسول ﷺ أذن الله سبحانه وتعالى بميلاد عهد جديد: عهد النور والهدي والإيمان.

وبدأ رسول الله ﷺ دعوته إلى الله سراً وكان أول من آمن به زوجته خديجة رضي الله عنها التي بشرته بالخير وطمأنته وهدأت من روعه منذ مجيئه إليها ينقل إليها خبر ما رأى في غار حراء وقد قال لعائشة رضي الله عنها مدافعاً عنها بعد وفاتها دفاع الوفي الصادق: والله ما أبدلني الله خيراً منها آمنت بي إذ كفر الناس وصدقتني إذ كذبني الناس وواستني من مالها إذ حرمني الناس ورزقني الله منها الولد دون غيرها من النساء[1].

واعتنق الإسلام أول صبي وهو علي بن أبي طالب ثم أسلم أبو بكر واسمه عبد الله ولقبه عتيق بن أبي قحافة، وكان رجلاً ذا عقل راجح وقد استجاب لدعوة الرسول استجابة الواثق من صدق الرسول والإيمان بنبوته فلم يتردد بل استجاب استجابة من أراد به الله الخير وشرح صدره للإسلام، حتى قال رسول الله: ما دعوت أحدا إلى الإسلام إلا كانت فيه كبوة ونظر وتردد إلا ما كان من أبي بكر.

ودعا أبو بكر من يثق بعقله فدخل الإسلام بدعوة أبي بكر كل من: عثمان بن عفان والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيد الله فجاء بهم إلى الرسول واعتنقوا الإسلام فكانوا من السابقين رضي الله عنهم.

وتتابعت مسيرة الهدى وتبع هؤلاء عدد آخر ذكرهم ابن هشام وغيره، وكان ذلك في

(1) حياة محمد ص 129.

سرية كاملة مخافة أن يفتنهم المشركون أو يؤذوهم، كما كان من السابقين إلى الإسلام كثير من المستضعفين من أمثال بلال بن رباح وصهيب وعمار بن ياسر وأسرته، وقد عذبهم المشركون حتى اشتراهم أبو بكر ﷺ. واعتقهم. فحماهم بذلك من أذى المشركين وتعذيبهم.

الحكمة في سرية الدعوة

1- أراد الله سبحانه وتعالى لهذه الدعوة العظيمة أن تخاطب العقل في هدوء بعيداً عن العنف والصخب والتعصب.
2- في سرية الدعوة ضمان لانتشارها سلمياً فلا تراق دماء ولا ينتج عنها ضرر، ولكي لا يراق دم في بيت الله الحرام.
3- يجوز للمسلمين بل ويجب عليهم أن يحذروا المناوئين، وان يسلكوا لبلوغ هدفهم سبل اللين والحكمة والسرية.
4- مهما كان الخير قوياً فلابد من الاحتياط، وحسن تقدير الموقف –وهذا واجب الإنسان الحريص.
5- السرية تعطي فرصة للعقل بحيث يفكر ويتأمل، فإذا قبل كان ذلك عن اقتناع تام.

تتابع الوحي بعد انقطاع:

انقطع الوحي عن الرسول ﷺ وفتر مدة لم يتفق عليها المؤرخون وأرجحها أر بعون يوما، وقد اشتد الشوق برسول الله ﷺ: فجاءه الوحي: وقد أخرج الشيخان عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: جاورت بحراء شهراً فلما قضيت جواري نزلت فاستبطنت الوادي فنوديت فلم أر أحدا فرفعت رأسي فإذا الملك الذي جاءني بحراء فرجعت فقلت دثروني فانزل الله {يا أيها المدثر (1) قم فأنذر (2) وربك فكبر (3) وثيابك فطهر (4) والرجز فاهجر(5)} (المدثر: 1-5) [1] ثم تتابع الوحي وكان يفتر أحيانا ليزداد شوق الرسول إلى الوحي وتستعد نفسه لتلقيه.

(1) أسباب النزول للسيوطي ص 453 والبخاري ج1 ص4 ةالاتقان للسيوطي ج1 ص24 وفيه هذا القول وقول آخران ما انزل بعد اقرأ نون القلم.

وخلال الفترة السرية للدعوة دخل الإسلام عدد من الرجال والنساء وأسلمت أسر بأكملها كبارا وصغارا، وانتشر أمر الإسلام بمكة واستمرت هذه الفترة ثلاث سنين ثم أمر الله رسوله ﷺ بأن يجهر بالدعوة فكان:

الجهر بالدعوة:

قال الله تعالى: {فاصدع بما تؤمر واعرض عن المشركين} (الحجر: 94) فجهر بالدعوة بعد أن كفاه الله شر المستهزئين في قوله تعالى في الآية التي بعدها {إنا كفيناك المستهزئين} (الحجر: 95).

وفي سبب نزولها: أخرج البزار والطبراني عن أنس بن مالك قال: مر النبي ﷺ على ناس بمكة فجعلوا يغمزون في قفاه ويقولون: هذا الذي يزعم انه نبي، ومعه جبريل فغمز جبريل عليه السلام بإصبعه فوقع مثل الظفر في أجسادهم فصارت قروحاً حتى نتنوا، فلم يستطع أحد أن يدنوا منهم[1] وقد كفاه الله شر أشدهم إيذاء له وهو أبو جهل عمرو بن هشام وقد أخذ حجراً كبيراً لا يطيق حمله إلا بصعوبة واخبر جلساءه في ناديه من المشركين بأنه سيرضخ به رأس الرسول ﷺ عندما يسجد للصلاة، وذهب لتنفيذ ما أراد فإذا به يعود مرتجفاً وهو يقول: قمت عليه لأفعل ما قلت لكم فإذا دنوت منه عرض لي فحل من الإبل ما رأيت مثله قط هم بي أن يأكلني.

ولما ذكر ذلك لرسول الله ﷺ قال: ذاك جبريل ولو دنا لأخذه.

وكان أبو جهل ينهى الرسول ﷺ عن صلاته في البيت فقال له مرة بعد أن رآه يصلي ألم أنهك عن هذا؟ فأغلظ له الرسول القول وهدده فقال: تهددني وأنا أكثر أهل الوادي ناديا فانزل الله تهديدا له {كلا لئن لم ينته لنسفعاً بالناصية (15) ناصية كاذبة خاطئة (16) فليدع ناديه (17) سندع الزبانية (18) كلا لا تطعه واسجد واقترب(19)} [2].

(1) أسباب النزول للسيوطي ص 270.

(2) العلق (15-19) أسباب النزول ص475.

وحسبي ما ذكرت ما يغني عن الاسترسال في ذكر أذى المشركين وإبطال كيدهم ويكفى ما ورد في القرآن الكريم الذي نزل بمكة فهو الخبر اليقين، وما ذكرته كتب أسباب النزول وما جاء في الأحاديث في مصادرها الصحيحة، وما ذكرته صحاح المغازي والسير.

وإنما يعنينا هو الحكمة المتمثلة في أن البقاء للأصلح، وان دعوة الحق لابد أن تعلو فالحق يعلو ولا يعلى عليه مهما كانت قوة خصومه وكثرتهم فهي كثرة كغثاء السيل.

وعلى كل مصلح ألا يبالي بما يجد من رفض المعاندين أو استهزائهم فما ضر نوحاً استهزاء قومه به وما ضر محمداً ذلك وكل الرسل صلوات الله عليهم وسلامه تعرضوا للأذى والسخرية ليكون ذلك عزاء وتسلية لكل من يدعو إلى الحق فلا يرده عن هدفه كيد مهما كان فالله هو الحق ولابد للحق أن ينتصر.

وبعد أن طمأن الله رسوله وكفاه هزؤ المستهزئين أمره بالجهر بالدعوة فبدأ بعشيرته الأقربين تنفيذاً لأمرا لله تعالى: {وأنذر عشيرتك الأقربين} (الشعراء: 214) وأخرج ابن جرير عن ابن جريح قال لما نزلت هذه الآية بدأ بأهل بيته وفصيلته فشق ذلك علي المسلمين فانزل الله {واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين}[1] وفي البداية بعشيرته دليل على أن الإنسان يجب عليه أن يبدأ بنفسه ثم بأهله حتى إذا قام بذلك تفرغ إلى غيرهم فالأقربون أولى بالمعروف وأولى بالإصلاح والرعاية.

وكما يقول الرسول ﷺ خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي فمن لا خير فيه لأهله لا خير فيه للناس وحتى لا يقول الناس لو كان ما يدعو إليه خيراً لدعا إليه أهله قبل أن يدعونا، وحتى لا يقول أحد هلا بدأت بأهلك ثم أتيتنا؟. فالبداية بهم تقطع الحجة.

وقد بدأ كما أمره الله بعشيرته الأقربين فقد اخرج البخاري وغيره عن ابن عباس قال: صعد رسول الله ﷺ إلى الصفا فنادى يا صاحباه: فاجتمعت عليه قريش. قال: أرأيتم لو أخبرتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم أكنتم تصدقوني؟ قالوا بلى قال: فاني نذير لكم بين يدي عذاب شديد فقال أبو لهب: تباً لك الهذا جمعتنا؟ فانزل الله {تبت يدا أبي لهب وتب} إلى آخرها.

(1) الشعراء 215 وأسباب النزول ص 324.

وأخرج ابن جرير من طريق إسرائيل عن ابن إسحاق عن رجل من همذان يقال له يزيد بن زيد: إن امرأة أبي لهب كانت تلقي في طريق النبي ﷺ الشوك فنزلت {تبت يدا أبي لهب إلى وامرأته حمالة الحطب} وأخرج ابن المنذر عن عكرمة نحوه[1]. واستمر الرسول ﷺ يدعو، ولما عاب آلهتهم ثارت ثائرة المشركين.

ذهاب وفد المشركين لأبى طالب:

اتفق عدد من أكابر قريش على الذهاب إلى أبي طالب لمنع ابن أخيه من سب آلهتهم وكان من هؤلاء: عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو سفيان والعاص بن هشام، والأسود بن المطلب، وأبو جهل، والوليد بن المغيرة، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج بن عامر، والعاص بن وائل، وهم من أشراف قريش ووجهائها فقالوا: يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سب آلهتنا، وعاب ديننا وسفه أحلامنا وضلل آباءنا. فإما أن تكفيه عنا، وإما أن تخلى بيننا وبينه فانك على مثل ما نحن عليه من خلافة فنكفيكه، فقال لهم أبو طالب قولا رقيقا، وردهم ردا جميلا فانصرفوا عنه. ولما أيقنوا أن الرسول ﷺ لم يتوقف عن سب آلهتهم رجعوا إلى أبي طالب فقالوا له: إن لك سنا وشرفا ومنزلة فينا، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا، أو ننازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين ثم انصرفوا عنه. فعظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم، ولم يطب نفسا بتسليم رسول الله ﷺ لهم فبعث إلى الرسول ﷺ فقال له يا ابن أخي: إن قومك قد جاءوني فقالوا لي وابلغه ما قالوا له، فابق على وعلى نفسك، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق فظن رسول الله ﷺ أن عمه خاذله فقال له يا عم: والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن اترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو اهلك دونه. ثم استعبر فبكى ثم قام فناداه عمه وقال: اقبل بابن أخي فقل ما أحببت، فوا الله ما أسلمك لشيء أبدا[2].

(1) المصدر نفسه 484.

(2) سيرة ابن هشام ج1 ص 161.

وتذكر بعض المصادر أنه قال:

(والله لن يصلوا إليك بجمعهم : : حتى أوسد في التراب دفينا)

وهكذا تكون المناصرة، وهكذا يكون الإيواء، والرجال إنما تظهرهم الشدائد.

ثم لجأوا إلى وسيلة أخرى لإقناع أبي طالب حيث عرضوا عليه عمارة بن الوليد أجمل فتى في قريش وقالوا له خذه بدل محمد ليقتلوه ويتخلصوا منه فقال له بئسما صنعتم وبئس ما تسومونني: أتعطونني ابنكم أغذوه لكم، وأعطيكم ابني تقتلونه؟ هذا والله مالا يكون أبدا. ولم يقل لهم هذا القول وهو كاره حماية ابن أخيه وإنما رفض عرضهم غير أسف علي فراقهم وقال قصيدة أثبت منها ابن هشام أربعة وتسعين بيتا مطلعها.

(كذبتم وبيت الله نخلي محمداً : : ولما نطا عن دونه ونناضل ومنها البيت المشهور:

وأبيض يستسقى الغنام بوجهه :: ثمال اليتامى عصمة للأرامل

ولما أعيتهم الوسائل اجتمع نفر منهم وعلى رأسهم الوليد بن المغيرة وقالوا قد حظر الموسم وستأتي العرب إلى البيت الحرام فاجمعوا على رأي واحد تقولونه في محمد حتى لا يكذب بعضكم بعضا. فقالوا تقول كاهن فقال لهم الوليد ما هو بكاهن، لقد رأينا الكهانة فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه، قالوا: فنقول مجنون. قال ما هو بمجنون لقد رأينا الجنون وعرفناه، فما هو بخنقه ولا تخالجه، ولا وسوسته، قالوا: فنقول شاعر قال: ما هو بشاعر لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطة فما هو بالشعر. قالوا: فنقول ساحر. قال ما هو بساحر قد رأينا السحار وسحرهم، فما هو بنفثهم ولا عقدهم. قالوا: فما نقول يا أبا عبد شمس؟ قال: والله إن لقوله لحلاوة، وان أصله لعذق وان فرعه لجناه، وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا ساحر جاء بقول هو سحر يفرق بين المرء وأبيه وبين المرء وأخيه وبين المرء وزوجه وبين المرء وعشيرته وتفرقوا على ذلك فلا يمر بهم أحد في الموسم إلا ذكر واله ذلك فنزل قوله تعالى {ذرني ومن خلقت وحيداً وجعلت له مالاً ممدوداً وبنين شهوداً ومهدت له تمهيداً ثم يطمع أن أزيد كلا إنه كان لآياتنا عنيداً }[1] من سورة المدثر.

(1) أسباب النزول ص 455.

الضيق يعقبه الفرج: إسلام حمزه وعمر:

اشتد أذىٰ المشركين للرسول ﷺ ومن آمن معه، ومع أن المشركين من قريش كانوا يهابون أبا طالب فإن أبا جهل كان شديد العداوة للرسول ﷺ.

وقد التقىٰ بالرسول يوماً علي الصفا فآذاه وشتمه شتماً قبيحاً وسب الإسلام فلم يكلمه الرسول ﷺ. وكانت جارية عبد الله بن جذعان تسمع ما يقول أبو جهل، وجاء حمزه بن عبد المطلب راجعاً من الصيد، وكان إذا رجع من قنصه يطوف بالكعبة قبل رجوعه إلىٰ بيته، وكان أعز فتىٰ في قريش، ولما مر بالجارية قالت له: يا أبا عمارة: لو رأيت ما لقي ابن أخيك محمد من أبي الحكم بن هشام، وجده ها هنا جالساً فآذاه وسبه وبلغ منه ما يكره ولم يكلمه محمد، فاحتمل حمزه الغضب لما أراد الله به من كرامته فخرج يسعىٰ ولم يقف علىٰ أحد، وكان من عادته لا يمر علي ناد إلا سلم علىٰ أهله وتحدث معهم، وجزم علىٰ الانتقام من أبي جهل جزاء إهانته محمدا. فلما دخل المسجد نظر إليه جالساً في القوم فاقبل نحوه، حتىٰ إذا قام علىٰ رأسه رفع القوس فضربه بها فشجه شجه منكره ثم قال: أتشتمه وأنا علي دينه، أقول ما يقول؟ فرد علىٰ ذلك إن استطعت، فقام رجال من بني مخزوم لينصروا أبا جهل فقال لهم: دعوا ابن عمارة فإني قد سببت ابن أخيه سباً قبيحاً، ولنا نحن المسلمين عبرة في حلم الرسول وصبره علىٰ الأذىٰ من السفهاء فلما أسلم حمزه عرفت قريش أن رسول الله ﷺ قد عز وامتنع فكفوا عن بعض ما كانوا ينالون منه.

وكان حمزه عم الرسول وأخوه من الرضاعة وهو أسن منه بنحو عامين وهو سيد الشهداء شهيد أحد وقد اسلم سنة ست من البعثة وقد أخي الرسول ﷺ بينه وبين الزبير بن حارثه عندما أخي بين المهاجرين والأنصار بعد الهجرة[1].

وبعد أيام وقد حددتها بعض المصادر بثلاثة[2] أسلم عمر بن الخطاب وقال فيه عبدالله بن مسعود أن إسلام عمر كان فتحاً وأن هجرته كانت نصراً، وإن إمارته كانت رحمة، وقد كنا ما نصلي عند الكعبة حتىٰ أسلم عمر فلما أسلم قاتل قريشاً حتىٰ صلي عند الكعبة وصلينا

(1) محمد رسول الله ص 128 وسيرة بن هشام ج 1ص 175.

(2) السيرة النبوية لاحمد دحلان ج1 ص256 علىٰ هامش السيرة الحلبية.

معه[1]، وكان شجاعاً مهاباً أبي أن يكتم إسلامه أو يداري المشركين وكان عبد الله بن مسعود موصوفاً بالشجاعة أيضاً بدليل أنه أول من جهر بالقرآن في الكعبة حيث قرأ مفتتح سورة الرحمن وآيات منها غير عابي بأذىٰ المشركين.

وكان إسلام عمر استجابة لدعوة رسول الله ﷺ: اللهم اعز الإسلام بأحد العمرين: عمر بن الخطاب أو أبي جهل عمر وبن هشام. واستجاب الله الدعوة في عمر بن الخطاب.

واخرج احمد عن عمر بن الخطاب قال: خرجت أتعرض لرسول الله ﷺ قبل أن أسلم فوجدته قد سبقني إلىٰ المسجد فقمت خلفه فاستفتح سورة الحاقة فجعلت أعجب من تأليف القرآن فقلت: هذا والله شاعر كما قالت قريش فقرأ: {إنه لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون. قلت كاهن قال: ولا بقول كاهن قلت ما تذكرون تنزيل من رب العالمين}[2] فوقع الإسلام في قلبي كل موقع.

وما ذكر عن قصة إسلامه لا يتنافىٰ مع ما جاء في بعض مصادر السيرة من أنه اسلم عندما جاء إلىٰ بيت سعيد بن زيد زوج أخته فاطمة بنت الخطاب غاضباً لما سمع من خبر إسلامها فدخل البيت وكان الحباب بن الأرث رضي الله عنه يقرآ عليهما آيات من بداية سورة طه فضرب أخته وزوجها ثم رق قلبه لما رأي الدم ينزف من رأس أخته وطلب منها أن تناوله ما يقرأ فطلبت منه أن يغتسل قبل أن يتناول ما بيدها فاغتسل وقرأ وكان يقرأ ويكتب، فقال ما أحسن هذا الكلام وأكرمه، وذهب متوشحاً سيفه إلىٰ رسول الله ﷺ فطرق فقام رجل من الصحابة فرآه متقلداً سيفه فرجع فزعاً متوجسا شراً من حضوره متقلدا فقال له حمزه دعه يدخل فإن كان يريد خيراً بذلناه له وإن كان يريد شراً قتلناه بسيفه فقال الرسول ﷺ ائذن له، ونهض إليه الرسول حتىٰ لقيه في الحجرة فأخذ بمجمع رداءه ثم جذبه جذبة شديدة، وقال: ما جاء بك يا ابن الخطاب، فوالله ما أري أن تنتهي حتىٰ ينزل الله بك قارعة. فقال يا رسول الله جئتك لأومن بالله ورسوله، وبما جاء من عند الله فكبر رسول الله ﷺ فعرف أهل البيت من

(1) سيرة ابن هشام ج1 ص210.

(2) الحاقة الآيات 40-43 والتفسير المأثور عن عمر ص 777 الأثر 803 وتاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزىٰ.

أصحاب رسول الله ﷺ أن عمر قد اسلم[1] ونزل قوله تعالى {يا أيها النبي حسبك الله ومن أتبعك من المؤمنين}[2].

الهجرة الأولى إلى الحبشة:

في السنة التي أسلم فيها حمزه وعمر، وقبل دخولهما الإسلام اشتد أذى المشركين للرسول ولمن آمن معه، فأمر الرسول بالهجرة إلى الحبشة علهم يجدوا فيها مكاناً آمناً، حيث إن أهل الحبشة أهل كتاب وحاكمها النجاشي، فهم أقرب من المشركين فذهب عثمان بن عفان ومعه امرأته رقية بنت رسول الله ﷺ وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة وامرأته سهلة بنت سهيل بن عمر والزبير بن العوام ومصعب بن عمير وعبد الرحمن بن عوف وأبو سلمه بن عبد الأسد ومعه امرأته هند وكنيتها أم سلمة بنت أبي أمية وعثمان بن مظغون وعامر بن ربيعة، وأبو سبره بن أبي رهم ومعه امرأته أم كلثوم ويقال أبو حاطب بن عمرو وسهيل بن بيضاء فكان عشرة عليهم عثمان بن مضعون ولم يطب لهم المقام بالحبشة فهم عدد قليل في دار الغربة فعادوا إلى مكة بعد ثلاثة أشهر، ودخل بعضهم في جوار أبي طالب مثل أبي سلمة حيث انه خاله فأجاره وحماه ودخل عثمان بن مضعون في جوار الوليد بن المغيرة ثم رد عليه جواره عندما رأى سوء معاملته للمسلمين.

وفى أمر الرسول صحابته بالهجرة دليل على وجوب فرار المسلم بدينه من ديار الشرك، واعتزال الفتنة ففي ارض الله متسع عن تحمل المذلة والهوان. وكما قال أحد مهاجري الحبشة عبد الله بن الحارث:

يا راكبا بلغن عنـــى مغلغلــة . . من كـــــان يرجو بلاغ الله والدين
كل امرئ من عباد الله مضطهد . . ببطـــــن مكـة مقهور ومفتـــون
إنا وجدنا بــلاد الله واسعـــة . . تنجى من الذل والمخزات والهون[3]

(1) سيرة ابن هشام ج1 ص 213 ونور اليقين ص41.
(2) أسباب النزول للسيوطى ص224 والآيه 64 من الانفال وقد بلغ عدد المسلمين اربيعين بإسلام عمر.
(3) سيرة ابن هشام ج1 ، 203.

الصحيفة أو الحصار الاقتصادي:

أصاب مشركي مكة اليأس من إذعان أبي طالب لتسليم ابن أخيه، ولم ينفع إيذاؤهم للمسلمين في ردهم عن دينهم فقرروا كتابة صحيفة تمنع التعامل مع بنى هاشم وبنى المطلب ولدى عبد مناف وإخراجهم من مكة والتضييق عليهم ومنع الناس من الاتجار معهم أو بيعهم ما يحتاجون إليه ودخل بنو هاشم وبنو المطلب في شعب أبي طالب لا فرق بين المسلم والكافر وبقوا محصورين في ذلك الجبل ما عدا أبا لهب فقد انحاز إلى المشركين ومنع التجار من مبايعتهم مع المانعين.

وبقى الحال على ما هو عليه ما يقارب من ثلاث سنوات عانى فيها المحاصرون كل صعوبة وضيق فكان لا يصلهم شيء من الطعام إلا خفية.

وقد انعدم الإحساس من المشركين فما كان يجوز في عرف الأخلاق والمروءة أن تجوع عدواً مهما كانت العداوة وقد ضرب الرسول مثلا أعلى في ذلك عندما كان أحد المسلمين يطوف بالبيت فاعتدى عليه أحد المشركين فقال الرجل المسلم يا رسول الله إن قومي يملكون تجارة عظيمة أفآمرهم فلا يبيعون المشركين الأقوات؟ فقال ﷺ لا. ولكن أين وجه المقارنة بين أكمل الناس وأدنى الناس؟ ولكن الإنسان العادي الذي أوتي شيئا من الأخلاق الحسنة والمروءة ولو في أدني صورها لا يرضى ما رضيه المشركون في تجويع أناس لا ذنب لهم إلا أن يقولوا ربنا الله.

ولما أشتد الحال قام خمسة من أشراف قريش هم: هشام بن عمرو بن الحارث، وزهير بن أبي أمية ابن عاتكة عمة الرسول ﷺ والمطعم بن عدي، وأبو البحتري بن هشام وزمعة بن الأسود. واتفق هؤلاء الخمسة على نقض الصحيفة الظالمة فطاف الزهير بالبيت ثم أقبل على الناس فقال: يا أهل مكة أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم والمطلب هلكى لا يبيعون ولا يبتاعون؟ والله لا اقعد حتى تشق هذه الصحيفة الضالمة القاطعة. فقال أبو جهل كذبت فقال زمعة لأبي جهل: أنت والله أكذب، ما رضينا كتابتها حين كتبت. فقال أبو النحترى: صدق زمعه، وقال المطعم بن عدي صدقتما، وكذب من قال غير ذلك، وصدق علي ما قيل: الهشام بن عمرو. فقام إليها المطعم بن عدي فشقها، وكانت الأرضة قد أكلتها، فلم يبق فيها إلا ما فيه اسم الله.

وقد أخبر النبي ﷺ عمه أبا طالب بذلك قبل أن يتم ما ذكر فخرج القوم إلى مساكنهم بعد هذه الشدة[1].

لا عبرة لمن لا يعتبر:

روى ابن إسحاق إن رجلا من أراش أو اراشة قدم بابل له ليبيعها في مكة فابتاعها منه أبو جهل فمطله بأثمانها، فاقبل الاراشي حتى وقف على ناد من قريش، ورسول الله ﷺ في ناحية المسجد فقال الإراشي يا معشر قريش: من رجل يؤديني علي أبي الحكم بن هشام؟ فاني رجل غريب ابن سبيل، وقد غلبني على حقي. فقال له أهل ذلك المجلس: ألا ترى ذلك الرجل الجالس – لرسول الله ﷺ وهم يهزؤون به لما يعلمون بينه وبين أبي جهل من العداوة، اذهب إليه فإنه يؤديك عليه.

وأقبل الإراشي إلى الرسول ﷺ وقال له ما قال للنفر وأرسلت قريش من يرى ويسمع ما يدور بينهم معتقدين أن أبا جهل سيطرد محمداً والإراشي.

وطرق الرسول ﷺ باب أبي جهل. فقال أبو جهل: من هذا؟ فقال محمد فاخرج إلى فخرج إليه، وما في وجهه من رائحة قد امتقع لونه فقال له الرسول ﷺ أعط هذا الرجل حقه فقال أبو جهل: نعم لا تبرح حتى أعطيه الذي هو له فدخل وخرج إليه بحقه فقدمه إليه، ثم انصرف الرسول ﷺ وقال للاراشي: الحق بشأنك، واقبل الإراشي حتى وقف علي ذلك المجلس من قريش فقال: جزاه الله خيراً فقد والله اخذ لي حقي.

وجاء الرجل الذي بعثوا معه فقالوا: ويحك ماذا رأيت؟

قال: عجباً من العجب، والله ما هو إلا أن ضرب عليه بابه فخرج إليه وما معه روحه فقال له أعط هذا الرجل حقه فأعطاه، ثم لم يلبث أبو جهل أن جاء فقالوا: مالك؟

والله ما رأينا مثل ما صنعت قط. فقال أبو جهل والله ما هو إلا أن ضرب علي بابي وسمعت صوته فملئت رعباً ثم خرجت إليه، وان فوق رأسه لفحلاً من الإبل ما رأيت مثل هامته ولا

(1) نور اليقين ص 45.

قصرته ولا أنيابه لفحل قط، والله لو أبيت لأكلني[1]. وهكذا أرادوا أن يسخروا منه فجاء الأمر على عكس ما كانوا يتوقعون.

وهذا أبو جهل الذي سماه الرسول ﷺ فرعون هذه الأمة يوم رآه مقتولا على يد رجلين من الأنصار في بدر. هاهو فرعون الأمة يرتجف ويرتعد رعباً أمام رسول الله بهيبة أعطاها الله إياه. وقد سبق لأبي جهل أن رأى مثل ما رأى هذه المرة عندما حاول إلقاء حجر على رسول الله ﷺ. ولكن: وما تغني النذر. فقد عموا وصموا ثم عموا وصموا فلم يتعظوا ولو كان لهم عقول يستعملونها لكفوا عن الأذى والكيد وهو الحد الأدنى إذا لم يفتحوا قلوبهم للإيمان.

وعندما أعتق أبو بكر الصديق رضي الله عنه إحدى الإماء لينقذها من التعذيب بعد إسلامها أصيبت هذه المرأة بالعمى فقال المشركون: ما اذهب بصرها إلا اللات والعزى فقالت كذبوا وبيت الله ما تضر اللات والعزى وما تنفعان فرد الله بصرها[2].

وقد شاهدوا ذلك ولم يعتبروا.

وفي أسباب نزول قوله تعالى {يس والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين على صراط مستقيم تنزيل العزيز الرحيم لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون لقد حق القول علي أكثرهم فهم لا يؤمنون}[3].

أخرج أبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس قال: كان رسول الله يقرأ في السجدة فيجهر بالقراءة حتى تأذي به ناس من قريش حتى قاموا ليأخذوه، وإذا أيديهم مجموعة إلى أعناقهم، وإذا بهم عمى لا يبصرون فجاءوا إلى النبي ﷺ فقالوا: ننشدك بالله والرحم يا محمد فدعا حتى ذهب ذلك عنهم فنزلت الآيات من 1/ 7 من سورة يس، ولم يؤمن من ذلك النفر أحد[4].

(1) سيرة ابن هشام ج1 ص 244.
(2) المصدر نفسه ص195.
(3) يس الآيات 1/ 7.
(4) أسباب النزول ص357/ 358.

وفي أسباب نزول قوله تعالى {إنا جعلنا في أعناقهم أغلالا فهي إلى الأذقان فهم مقمحون وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون}[1].

أخرج ابن جرير عن عكرمة قال. قال أبو جهل: لئن رأيت محمدا لأفعلن ولأفعلن فانزل الله إنا جعلنا في أعناقهم أغلالا إلى قوله لا يبصرون فكانوا يقولون هذا محمد فيقول أين هو؟ أين هو؟ ولا يبصر[2].

وحدث هذا لأم جميل حمالة الحطب عندما سألت عن الرسول ﷺ فقيل لها مع أبي بكر فجاءت إليه لتؤذيه فاذهب الله بصرها فلم تره. فهل اعتبر المشركون بهذا؟ وأنى لهم أن يعتبروا وقد صدق قول القائل في المشركين لم أسمع بأحمق منهم وقد قال الله فيهم {وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو أتنا بعذاب أليم}[3] ولم يقولوا: اللهم إن كان هذا هو الحق فأهدنا إليه.

وفي رواية نزلت في النضر بن الحارث أو في أبي جهل.

ولم يؤخر الله عنهم العذاب إلا إكراما لرسوله وهو فيهم وقد أرسله رحمة للعالمين، ولإعطائهم المهلة علهم يتراجعون وقد أصابهم بعض الندم على غيهم وعنادهم وهم مستحقون للعذاب لأنهم كفروا وصدوا غيرهم عن الهدي: {وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون، ومالهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه، إن أولياؤه إلا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون}[4].

وأراد المشركون اختبار صدق النبي فقد روي عن ابن عباس إنهم بعثوا النضر بن الحارث وعقبة من أبي معيط إلى أحبار اليهود بالمدينة فقالوا لهم: سلوهم عن محمد، وصفوا لهم صفته واخبروهم بقوله فإنهم أهل الكتاب الأول، وعندهم ما ليس عندنا من علم الأنبياء، فخرجا حتى إذا أتيا المدينة فسألا أحبار اليهود عن الرسول ﷺ ووصفا لهم أمره

(1) يس الآيتان 8 – 9.
(2) أسباب النزول 358.
(3) الانفال الآية 32.
(4) الانفال الايات 33 / 34.

وبعض قوله فقال لهم اليهود: سلوه عن ثلاث، فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل وان لم يفعل فالرجل متقول: سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان أمرهم؟ فإنه كان لهم أمر عجيب، وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه؟ وسلوه عن الروح ما هو؟ فاقبلا حتى قدما على قريش فقالا قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد فجاءوا رسول الله ﷺ فسألوه فقال: أخبركم غدا بما سألتم عنه ولم يستثن فانصرفوا ومكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة لا يحدث الله في ذلك وحيا ولا يأتيه جبريل حتى أرجف أهل مكة وحتى احزن الرسول مكث الوحي عنه وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة ثم جاءه جبريل من الله بسورة أصحاب الكهف فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم وخبر ما سألوه عنه من أمر الفتية والرجل الطواف، ذي القرنين وقول الله ويسألونك عن الروح[1]. وكان مقتضي ذلك أن يؤمنوا. ومع كفرهم كان الرسول حزينا عليهم فقال تعالى: {لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين}[2].

الهجرة الثانية إلى الحبشة: عند دخول الرسول ﷺ وقومه شعب أبي طالب أمر الرسول جميع المسلمين بالهجرة إلى الحبشة ليلحقوا بمن سبقهم هناك فمنهم من لم يرجع من الهجرة الأولى، وذلك ليخفف من معاناتهم وحتى يقلل من ضرر الحصار والتجويع.

وكانوا نحواً من ثلاثة وثمانين رجلا وثماني عشرة امرأة. وكان من بينهم جعفر بن أبي طالب وامرأته أسماء بنت عميس والمقداد بن الأسود وعبد الله بن مسعود وعبيد الله بن جحش وامرأته أم حبيبة بنت أبي سفيان. وأبو عبيدة بن الجراح وغيرهم ولحق بهم الذين أسلموا من جهة اليمن ومنهم أبو موسى الأشعري وبنو عمه.

وأرسلت قريش عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد بهدايا إلى النجاشي وحاولوا الضغط عليه لإرجاعهم إلى مكة فرفض تسليم من لاذ به واحتمي بحماه.

ويؤخذ من هذه الوقائع حسن تصرف النبي ﷺ في عمله على تخفيف ما أصاب المسلمين من الأذى والتجويع وجواز الاحتماء بالجيران في الشدة.

---

(1) أسباب النزول ص289.

(2) الشعراء الآية 3. باخع نفسك: مهلكها حزنا وحسرة.

عالمية الرسالة: وفود نـجران:

قدم إلى الرسول ﷺ بعد خروجه من الشعب وفد من نصارى نجران بلغهم أمره من مهاجري الحبشة فسارعوا بالقدوم عليه حتى يروا صفاته التي ذكرتها كتبهم، وكانوا عشرين رجلا أو قريبا من ذلك وقرأ عليهم القرآن فآمنوا كلهم فقال لهم أبو جهل: ما رأينا ركبا أحمق منكم، أرسلكم قومكم تعلمون خبر هذا الرجل فصبأتم فقالوا سلام عليكم لا نجاهلكم، لكم ما أنتم عليه ولنا ما اخترناه فانزل الله ذلك في سورة القصص.

{الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون، وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به انه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرءون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين}[1] وهذا الوفد عندما آمن بمحمد فإنما صدق ما جاء علي لسان عيسي في البشارة بمحمد إن أبا جهل يتهم وفد نجران بالحمق، لأنهم صدقوا رسول الله ﷺ وقد وجدوا ما رأوه فيه مطابقا لما في كتبهم، أما هو فليس بأحمق: وصدق الله العظيم إذ يقول: {قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون إنهم يحسنون صنعا أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتي ورسلي هزؤا}[2].

وكما قيل: تستطيع أن تحمي الإنسان من شر غيره، ولا تستطيع أن تحميه من شر نفسه.

وفاة خديجة وأبي طالب:

شاءت حكمة الله تعالى أن يكون رحيل خديجة وأبي طالب في عام واحد حتى إن بعض المصادر تقول إن بين وفاة خديجة وأبي طالب شهر وخمسة أيام وسمي عام وفاتهما عام الحزن وذلك وفاء لهما لما قدما من حماية ومساندة للدعوة وكانت خديجة رضي الله عنها. اقرب الناس للرسول ﷺ تخفف عنه ما حل به من أذي وتضمد جراح نفسه. ويجد في كنفها المودة

(1) القصص الآية 52.

(2) الكهف الآيات 104/ 106.

والرحمة، كما كان أبو طالب يقف بينه وبين المشركين، ولم ينله منهم غير تلك السفا سف التي كانت تنم عن سقوط في المروءة، وكانت تصرفات فردية لم تأخذ طابعا منظما كما كانوا يتوعدون، لأن أبا طالب كان ذا شأن فيهم وقبل هذا كله فإن الله قد تكفل بحمايته من كل معتد وقد عصمه من الناس، أما أن يلاقى الأذى فهذا ما لقيه كل الرسل، وقد اخبره ورقه بن نوفل بأن قومه سيعادونه وقال لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي وقد اشتدت عداوتهم بعد وفاة أبي طالب وهو دليل على دناءتهم وأنى لهم أن يعرفوا أن من يحميه حي لا يموت.

ومن الحكم في رحيلهما:

1- أن الله سبحانه هو المتكفل بحماية الدعوة وبلوغها غايتها مهما كانت الأسباب الظاهرة ملائمة أو غير ملائمة.

2- في تسمية الرسول هذا العام عام الحزن دليل علي سمو أخلاقه واعترافه بالجميل لأهله، فمن لا يعرف فضل الناس لا يعرف فضل الله فهو لا يبخس حق أحد في أن يقال فيه ما يستحق من ثناء يستحقه.

3- أن كل شيء بثمن فما من أحد يبلغ غاية عظيمة دون أن يدفع ثمنها من جهده وصبره. ولولا الأذى لما ظهر الحلم والصبر وقوة الإرادة.

4- في سبيل الحق تهون كل الصعاب فمن أراد الآخرة هانت عليه الدنيا بما فيها، ولهذا استهان الرسول ﷺ وصحبه بكل شيء، لإيمانهم بعقيدتهم، وبأن ما وعدوا به أكبر من أنفسهم وأموالهم والحياة بأسرها.

الذهاب إلى الطائف:

أراد الرسول ﷺ أن يذهب بدعوته إلى مكان خارج مكة عله يجد آذاناً مصغية لدعوة الحق فذهب إلى الطائف وهى بلدة في الحجاز على مسافة 65 ميلا جنوب شرقي مكة[1] ولكنه رأى من أهلها إعراضاً شديداً، وجفوة اشد من جفوة مشركي مكة فرجع.

(1) محمد رسول الله ص140 والميل كيلو متر وثلاثة اخماس الكيلو.

وأثناء رجوعه رآه عتبة وشيبه إبنا ربيعة فأرسلا إليه غلاماً نصرانياً اسمه عداس يعمل في مزرعتهما بقطف من عنب ولما وضعه بين يدي رسول الله ﷺ ليأكل منه قال الرسول بسم الله فقال له عداس والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلدة فقال له الرسول ﷺ ومن أي البلاد أنت وما دينك؟ قال: أنا نصراني وأنا رجل من أهل نينوى – قرية يونس عليه السلام وهي بالموصل في العراق – فقال الرسول ﷺ من قرية الرجل الصالح يونس بن متي؟ قال له وما يدريك من يونس بن متى؟ قال الرسول ﷺ ذلك أخي كان نبياً وأنا نبي فأكب عداس على رسول الله ﷺ يقبل رأسه ويديه ورجليه، ولما سأله ابنا ربيعة قال ما رأيت خيراً من هذا الرجل لقد أخبرني بخبر لا يعلمه إلا نبي. فكان إيمان هذا الرجل وتلطفه بالرسول عزاء عما لقيه من صد أهل الطائف، ولم يهن الرسول ﷺ ويتراجع عن الدعوة ولم ييأس وهو في أحرج الأوقات فلقد عرض الإسلام على هذا الغلام الذي ظهرت عليه علامات الهداية.

ودعا الرسول ﷺ دعاءه المشهور والمسمى دعاء الطائف: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني علي الناس اللهم يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربي إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني، أو إلى عدو ملكته أمري، إن لم يكن بك على غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع، إني أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت به الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك، أو يحل بي سخطك، لك العتبى حتى ترضي، لا حول ولا قوة إلا بك».

ولما رجع الرسول ﷺ إلى مكة ودخل المسجد رآه أبو جهل فقال – على سبيل السخرية – هذا نبيكم يا بني عبد مناف فقال عتبة بن ربيعة: وما تنكر أن يكون منا نبي أو ملك؟

فأخبر بذلك النبي ﷺ أو سمعهم فأتاهم فقال: أما أنت يا عتبة بن ربيعة فو الله ما حميت لله ولا لرسوله، ولكن حميت لانفك، وأما أنت يا أبا جهل، فوالله لا يأتي عليك غير كبير من الدهر حتى تضحك قليلا وتبكي كثيراً، وأما أنتم يا معشر الملأ من قريش فوالله لا يأتي عليكم غير كبير من الدهر حتى تدخلوا فيما تنكرون وانتم كارهون

ومن العبر في قول الرسول ﷺ:

1- العبرة بالنية فمن لا نية له لا عمل له، ولهذا لم يكن لقول عتبة اي قيمة لأنه ليس صادراً عن نية مخلصة

2- صدق الرسول فيما قال: فقد مات أبو جهل كافراً في بدر ودخل الملأ من قريش في الإسلام يوم الفتح. لما رأوا غلبة الإسلام.

وفي رجوعه من الطائف مر به نفر من الجن وهو يقرأ سورة الجن فاستمعوا له وآمنوا به ولم يشعر بهم ﷺ حتى نزل عليه {و إذْ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضي ولوا إلى قومهم منذرين}[1] وكانوا سبعة وقيل أكثر.

معجزة الإسراء والمعراج

أراد الله سبحانه وتعالى أن يكرم رسوله ﷺ ويريه من آياته وقد ضاقت به الأرض واشتد أذى المشركين في عام الحزن الذي فارق فيه عمه وزوجه الوفية فكان الإسراء في هذا العام. ولئن جفاه أهل الأرض من المشركين فله في الملأ الأعلى من يغنيه.

وندع مصادر السيرة ليكون مصدرنا أصح وأوثق من أي مصدر آخر، وهذا المصدر هو القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وقد خلد هذه المعجزة في سورة الإسراء التي من أغراضها:

إثبات نبوة محمد ﷺ وتأييده بالمعجزات، وإثبات أن القرآن وحي من عند الله، والتنويه بفضله وإعجازه، وفضل من أنزل عليه ورد مطاعن المشركين في القرآن وفي الرسول وإبطال تكذيب المشركين ودعواهم استحالة أن يكون الإسراء حقاً، واثبات أن الله أكمل الفضائل للرسول بإحلاله مهبط الرسالات السابقة والتذكير بنعم الله، وإبطال دعوى المشركين بأن الملائكة بنات الله تعالى الله عن ذلك، وإثبات البعث والجزاء، والحث على إقامة الصلوات في أوقاتها، والتحذير من نزغ الشيطان، وإثبات عداوته لآدم، وذكر ما عرض للأمم من استئصال وهلاك، وتهديد المشركين بأن الله ينصر الإسلام علي باطلهم[2].

والقرآن إنما أنزله الله للتدبر فقال تعالى {ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب}[3].

(1) الاحقاف الآية 29 وانظر: محمد رسول الله ص142.

(2) التحرير والتنوير ج 15 ص9 وقد نزلت هذه السورة بعد سورة القصص وقبل سورة يونس

(3) ص من الآية 29

ونزولا على هذا الأمر الإلهي فإنني ادع مصادر السيرة جانباً لأتأمل في بعض آيات هذه السورة الكريمة ثم أعود بعد ذلك إلى ما ترويه بعض مصادر السيرة.

وقد افتتحت هذه السورة بقوله تعالى {سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله}.

التأمل الأول:

وردت كلمة سبحان في القرآن الكريم ثماني عشرة مرة، وفي كل مرات ورودها كانت تتخلل الكلام ولم تأت في بداية الكلام، إلا في هذه السورة.

والاستفتاح بها من دون سبق كلام يشعر بأن أمرا عجبا وقع يستدعي التعجب، وتنزيه الله ﷻ عن كل عجز وهذا ما يسمى: براعة الاستهلال، بحيث تكون الكلمة مؤذنة بما بعدها.

وكما افتتحت هذه السورة بالتسبيح فقد اختتمت بالتحميد والتكبير في قوله تعالى {وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيراً}[1].

وهذا ما يجعلها تجمع التسبيح والتحميد والتكبير كما قال ﷺ في حديث أبي هريرة رضي الله عنه «من سبح في دبر كل صلاة – ثلاثا وثلاثين وحمد الله ثلاثا وثلاثين وكبر الله ثلاثا وثلاثين فتلك تسعة وتسعون وقال تمام المائة لا اله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير غفرت له خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر»[2].

وهذا التعجب إنما هو تعجب السامعين، ومنهم من أنكر، ولم يصدق إلا أقوياء الإيمان وعلى رأسهم أبو بكر رضي الله عنه فسماه الرسول ﷺ الصديق.

وسبحان: هي أصل صيغ التسبيح جميعها ومنها نحتت السبحله. ولما لم يكن في الكلام ما يوهم تشبيهاً أو نقصاً في حق الله تعالى تعين أن تستعمل في أكثر من التنزيه، وذلك هو التعجب من الأمر المتحدث به والمخبر عنه.

---

(1) الإسراء: الآية 111.

(2) صحيح مسلم بشرح النووي ج2ص95كتاب المساجد ومواضع الصلاة استحباب الذكر بعد الصلاة.

التأمل الثاني:

في قوله تعالى {أسرى بعبده ليلا} والسرى بضم السين سير عامه الليل وأسرى به سيره[1] والهمز ليس للتعدية لأنها حاصلة بالباء، والتعدية بالباء ابلغ؛ لأن فيها مضى مشاركة الفاعل المفعول في الفعل؛ ففيها معنى اصطحبه ورافقه بعيدا عن التجسيم والتشبيه، وهذا إشارة إلى إن العناية الإلهية أحاطت بالرسول ﷺ عند الإسراء إحاطة مصاحبة، فالله معه بقدرته، وعنايته وتوفيقه، ومنه قوله تعالى {فاسر بأهلك}[2].

وكلمة عبد أضيف إلى ضمير الجلالة إضافة تشريف فكل الناس عباد الله، ولكن رفعا لمنزلة الرسول ﷺ أضيفت الكلمة إلى ضمير الجلالة.

ولم ترد هذه الكلمة مضافة إلى اسم الجلالة إلا قُصد بها الرسول ﷺ ومن ذلك قوله تعالى {الحمد لله الذي انزل على عبده الكتاب}[3] وقُصد بذلك محمد ﷺ.

وقد وردت مضافة إلى ضمير الجلالة سبع مرات في القرآن الكريم ست منها مراد بها الرسول ﷺ وواحدة في سورة مريم مصرح فيها باسم زكرياء عليه السلام {ذكر رحمة ربك عبده زكرياء} ووردت بلفظ عبدنا خمس مرات اثنتان مصرح فيهما باسم داود وأيوب عليهما السلام وثلاث مراد بها الرسول ﷺ[4].

وفي هذه الكلمة مغزى آخر وحكمة بالغة وهو ألا يعتقد أحد أن هذه المنزلة الرفيعة قد غيّرت شيئا من بشرية الرسول ﷺ فهو عبد الله ورسوله وان جرت على يده خوارق العادات والمعجزات، وليس كما اعتقد النصارى خطأ بأن معجزات عيسى عليه السلام في مولده قد غيّرت من بشريته وجعلته قريبا من الإلوهية[5]. فالإسلام يريد من أتباعه أن تكون عقيدتهم سليمة

(1) ترتيب القاموس المحيط.
(2) الحجر من الآية 65.
(3) الكهف من الآية 1.
(4) هداية الرحمن لالفاظ وآيات القرآن.
(5) القرطبي ج10 ص205

لا لبس فيها ولا التواء، وقال العلماء لو كان للنبي ﷺ اسم أشرف منه لسماه به في تلك الحالة العلية[1].

وذكرت كلمة ليل مع أن كلمة أسرى تعني السير ليلا لأمرين:

الأول: في تنكير الكلمة معنى التعظيم.

الثاني: ليصدق وقوع الإسراء في أي جزء من الليل وإن قل هذا الجزء، ولهذا قالت أم هاني رضي الله عنها: رجع رسول الله ﷺ إلى مكانه وفراشه لم يبرد.

واعتقد أن لذكر الليل زمنا للإسراء خصيصة مؤادها: أن عظائم الأمور وقعت ليلا فالقرآن نزل في ليلة القدر، والهجرة وقع الخروج إليها ليلا عند مغادرة الرسول ﷺ بيته وقد ناجي موسى ربه ثلاثين ليلة وأتمها الله بعشر {فتم ميقات ربه أربعين ليلة}[2] وقد أقسم الله بالفجر وليال عشر، وأقسم بالليل {والليل إذا يغشي}[3] فالليل وقت تصفو فيه النفوس، ويتجلى فيها الصفاء الروحي، فالعباد يقومون الليل، والمرضى يزيد إحساسهم بالألم في الليل حين يخلو الإنسان إلى نفسه، فالليل يشيع في النفس الرهبة والخشوع والهدوء أيضاً.

التأمل الثالث:

في قوله تعالى {من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا}.

والمسجد الحرام هو المسجد الذي رفع إبراهيم وإسماعيل قواعده، وهو أول بيت وضع للناس مثابة وأمنا، والعرب في جاهليتهم يسمونه البيت الحرام ويعظمونه على ما هم عليه من شرك وقد أعلى الإسلام قدره، وهو الكعبة والفناء المحيط بها، وأصل الحرام: الممنوع لأنه مشتق من الحرم بسكون الراء وهو المنع أي الممنوع من أن يعمل فيه عمل ما من شأنه أن يتعارض مع حرمته[4] وهو بدء الرحلة. والمسجد الأقصى هو نهاية الرحلة، ووصف بالأقصى

(1) نفس المرجع والصفحه.
(2) الاعراف من الآية 142
(3) الليل الآية 1.
(4) التحرير والتنوير ج15ص12.

أي الأبعد لبعده عن المسجد الحرام، ومن المعلوم أن صيغة أفعل التفضيل تقتضي تماثل موصوفين في صفة واحدة مع زيادة أحدهما فيها وفي ذلك إشارة ضمنية إلى مسجد ثالث يكون أقرب منه فكان مسجد الرسول ﷺ بالمدينة، ولم يكن بنى أو وجد، ولكنه علم الله الأزلي فكان ذلك المسجد ذا المكانة العالية وقد قال ﷺ، لا تشد الرحال إلا لثلاثة مساجد المسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجدي[1]. فرحلة الإسراء بدأت من المسجد الحرام وانتهت بالمسجد الأقصى الذي بارك الله حوله لما حوله من كنائس عامرة ومياه وأشجار وقد أحاطت به بعض قبور الأنبياء والصالحين، فقد أحاطت به البركة حتى فاضت عليه، وهو في هذه البركات كالمعصم في السوار، ولهذا لم يقل باركناه أو باركنا فيه؛ لتشمل البركة ما حوله وتشمله من باب أولى ومن هذه البركة فضيلة الصلاة فيه، وأعظمها حلول الرسول ﷺ فيه ليلة الإسراء، ولأن المسجد الأقصى ليس مشهوراً كالمسجد الحرام فقد وصفه، ولم يصف المسجد الحرام إلا بالحرام لأن حرمته معروفة، وبين من وهي بداية رحلة الإسراء وإلى وهى نهايتها بعد شاسع يعرفه أهل مكة وقد حدث هذا في جزء من ليلة. ولا قيمة للزمان والمكان أمام القدرة الإلهية.

التأمل الرابع:

المسجد الأقصى هو المسجد الذي بناه إبراهيم عليه السلام بعد المسجد الحرام كما في الصحيحين: عن أبي ذر قال: يا رسول الله أي مسجد وضع في الأرض أول؟قال: المسجد الحرام قلت ثم أي؟ قال المسجد الأقصى قلت كم بينهما قال أربعون سنة. وهو الموضع الذي وضع عليه داوود عليه السلام الخيمة وبنى عليه محرابه، وأوصى ابنه سليمان عليه السلام أن يبنى عليه المسجد أي الهيكل.

وقد تعرض للتخريب ثلاث مرات فقد خرّبه ملك بابل سنة 578 قبل الميلاد ثم جدده اليهود تحت حكم الفرس، وخرّبه الرومان في المرة الثانية سنة 135 بعد الميلاد، والثالثة على يد الروم ولما فتح المسلمون الشام في خلافة عمر انعقد الصلح بينه وبين النصارى فقال عمر: دلوني على مسجد داوود عليه السلام ولما دخله قال عمر رضي الله عنه: الله اكبر هذا والذي نفسي بيده

(1) زاد المسلم ج 5ص214.

مسجد داوود الذي اخبرنا رسول الله ﷺ أنه أسرىٰ به إليه فصلىٰ عمر رضي الله عنه فيه، وكان وقتها مهملا.

وبنىٰ في عهد عبد الملك بن مروان فأمر ببناء القبة علىٰ الصخرة وعمارة المسجد الأقصىٰ وبدئ في بنائه سنة ست وستين للهجرة وتم بناؤه سنة ثلاث وسبعين[1].

وقد استقبله المسلمون في صلاتهم من يوم أن فرضت ليلة الإسراء إلىٰ ما بعد الهجرة بستة عشر شهرا؛ ليكون ذلك حجة علىٰ أهل الكتاب حيث كان قبلتهم؛ ليعلموا صدق رسول الله ﷺ وانه ليس بدعا من الرسل الذين سبقوه فقد صلىٰ إلىٰ ما صلوا إلية حتىٰ أمر الله بتحويل القبلة إلىٰ الكعبة؛ وقد ألزمهم الله الحجة في قوله تعالىٰ: {وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب علىٰ عقبيه}[2].

وإذا كان المسجد الأقصىٰ هو مهبط الرسلات السابقة فإن رسول الله ﷺ قد شارك بالإسراء إليه الرسل السابقين في فضل هذا المكان فلم يفته شيء من ذلك الفضل.

وفي ذلك رمز إلىٰ أن الرسالات السماوية أصلها واحد فلا فرق في العقيدة فكلها عقيدة التوحيد، فقد جمع الإسراء بين مهبط رسالة الإسلام في مكة ومهبط الرسالات السابقة، فنهاية الإسراء جمعتهم في مكان مقدس واحد.

وفي ذلك إشارة إلىٰ أن عمارة المسجد الأقصىٰ بالشريعة السماوية ستكون علىٰ يد المسلمين ممثلين في رسول الله ﷺ حيث كان اليهود وقت الإسراء مشتتين بعد ما حل بهم من تشريد ولم تكن إلا كنائس النصارىٰ الذين أذاقوا اليهود أصناف التعذيب لقتلهم المسيح حسب اعتقادهم.

إما أن الله سبحانه وتعالىٰ قد أراد أن يرىٰ رسوله بالإسراء آيات الله فقد أراه من الآيات ما أشارت اله كتب الحديث وروته مصادر السيرة، وقد أشار القرآن الكريم إلىٰ هذه الآيات ولم يفصلها، وفصلها الرسول ﷺ. وقد فرض الله علىٰ عباده الصلاة فهي أول فريضة

(1) التحرير والتنوير ج15ص18

(2) البقرة من الآية 143

يفرضها الله على المسلمين ولعلو منزلتها فرضت في السماوات العلى. وقد فرضها خمسين ورحمة منه بعباده جعلها خمسا في العدد خمسين في الأجر كما جاء في البخاري[1] هي خمسة وهي خمسون لا يبدل القول لدي.

التأمل الخامس:

تضمنت سورة الإسراء والتي كان الصحابة يسمونها أيضاً سورة بني إسرائيل إشارة إلى تاريخهم وما حل بهم ليكون الرسول ﷺ على علم بمكائدهم فقال تعالى: {وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علو كبيرا فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليهم عبادا لنا أولي بأس شديد فجاسو خلال الديار وكان وعداً مفعولا}[2].

وفي هاتين الآيتين الكريمتين إشارة إلى تاريخ بني إسرائيل وما لحق بهم من تشريد لإفسادهم في الأرض وطغيانهم

ونذكر نبذه عن تاريخ بني إسرائيل:

بعد وفاة موسي عليه السلام أغار بنو إسرائيل على بلاد كنعان فلسطين وما إليها زعما منهم بأن هذه الأرض موعودون بها وذلك بقيادة يوشع خليفة موسى عليه السلام واحتلوها واستولوا على جميع ما فيها من خيرات وثروات، بعد أن أبادوا معظم أهلها. واستعبدوا من ابقوا عليه منهم فانتهت لديهم بذلك حياة الخشونة والبداوة والتنقل وافتتحوا عهد الدعه والاستقرار وسكنوا المدن والقرى والمنازل، والقصور التي ورثوها عن الكنعانيين، وأخذت مزاولتهم لشؤون دينهم تسير تحت إشراف أحبارهم وربانيهم وسدنة مذابحهم، وكان معظم هؤلاء يتألفون من نسل ليفي أحد أبناء يعقوب عليه السلام، وهم رهط موسي وهارون أما رؤساؤهم السياسيون فكانوا في صدر هذه المدة من القضاة ثم أصبح رؤساؤهم السياسيون ملوكا[3].

(1) ج1ص98كتاب الصلاة.

(2) الإسراء الآيتان 4، 5.

(3) الشعب الملعون في القرآن ص149 د. محمود بن الشريف.

في سنة 721 قبل الميلاد استولى الأشوريون في عهد ملكهم سرجون الثاني على مملكه إسرائيل ثم طردهم فرعون مصر واستولى على مملكة اليهود سنة 608 قبل الميلاد[1].

وفي سنتي 596 و587 قبل الميلاد أغار بختنصر ملك بابل وأشور على فلسطين فأزال ملك بني إسرائيل واسر منهم عددا كبيرا أجلاهم إلى بابل واشتهر ذلك في التاريخ باسم نفي بابل أو الأسر البابلي. وهذا هو التدمير الأول لمدينة أورشليم والمعبد، وبهذا الأسر تم زوال شعب إسرائيل من التاريخ ككيان منظم.

وبقى اليهود في الأسر زهاء خمسين سنة حتى تغلب كورش ملك الفرس على البابليين سنة 532 قبل الميلاد فأطلق سراح اليهود، ورجع كثير منهم إلى فلسطين واستعادوا بعض أوضاع حياتهم الأولى ولكنهم فقدوا استقلالهم ولم ينعموا به بعد ذلك إلا فترات قصيرة فوقعوا تحت سيطرة الفرس، وضلوا كذلك زهاء قرنين كاملين من سنة 530 إلى 330 فبل الميلاد ثم صاروا تحت حكم البطالمة ملوك مصر حتى سنة 166 قبل الميلاد ثم عاد ملكهم في فترة مليئة بالفتن إلى سنة 40 قبل الميلاد ثم وقعوا تحت سيطرة المقدونيين خلفاء الإسكندر الأكبر ثم سيطرة الرومان في سنة 40 بعد ميلاد المسيح عليه السلام. وهذه المرة الأولى المشار إليها في الآية.

أما المرة الثانية ففي سنة 135 بعد الميلاد حيث أخمد الرومان في عهد ملكهم هادريان ثورة قام بها اليهود استمرت خمسه أعوم من سنة 130 إلى سنة 135 بعد الميلاد واستخدم في إخمادها اعنف وسائل البطش فدمروا بلادهم واخرجوا منها فصاروا مشتتين هائمين على وجوههم في مختلف بقاع الأرض[2] وبذلك انتهي أمرهم ولم يخرجوا من حكم الرومان إلا عندما فتح المسلمون أورشليم صلحا على يد عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

هذا في التاريخ القديم أما في التاريخ الحديث فقد طردوا من بريطانيا سنة 1290 ومن فرنسا مرتين سنة 1306 وسنة 1294 وطردوا من المجر مرتين الأولى سنة 1360 والثانية 1582 وطردوا من بلجيكا عام 1370 وشردوا من تشيكورلوفاكيا سنة 1380 ثم عادوا إليها سنة

(1) مقارنة الاديان– اليهودية. د احمد شلبى ص84.

(2) الشعب الملعون في القرآن ص150.

1582 وطردوا منها مرة أخرىٰ عام 1744 وطردوا من النمسا عام 1432 وكذلك من هولندا عام 1444 كما اخرجوا من ايطاليا سنة 1540 وتم نفيهم من ألمانيا سنة 1551 وكاد النازيون يبيدونهم في الحرب العالمية الثانية سنة 1940[1].

وبعد هذه اللمحة الموجزة عن تاريخ بني إسرائيل وما حل بهم لإفسادهم نعود إلىٰ التأمل في الآية:

عندما علا بنو إسرائيل وعاثوا في الأرض فساداً أرسل الله عليهم عبادا له أولىٰ بأس شديد فأذاقوهم ألوان العذاب والتشريد وكانت الأولىٰ علىٰ يد البابليين والثانية علىٰ يد الرومانيين كما سبق، وهذا ما يشير إليه جمهور المفسرين.

وقد جاء في كتاب صوت الأزهر في المعركة أن المقصود بالمرتين انتصار المسلمين عليهم في عهد عمر بن الخطاب وهي المرة الأولىٰ أما المرة الثانية فهو الوعد بالقضاء عليهم علىٰ يد المسلمين أيضاً وان المرة الثانية لم تأت بعد. وقد جاء فيه بالنص ما يلي:

الفساد المراد من قوله تعالىٰ {لتفسدنّ في الأرض مرتين} ليس هو الفساد العام الذي عرف منهم وعرفوا به في كل طور من أطوار حياتهم، وإنما هو فساد كبير لا يقاس به غيرة، ولهذا خصه الله بالذكر، وأكد انه سيحدث منهم مرتين يستفحل فيهما أمره، وشره، حتىٰ لا يقاس به غيره، أما المرة الأولىٰ فسينتهي فيها أمرهم بأن يسلط الله عليهم عبادا يشرُفون بعبادته، والانتساب إليه ويعرفون بقوة البأس والشدة فلا يجرؤ بنو إسرائيل علىٰ مقاومتهم، أو مناهضتهم أو معارضتهم أو الوقوف في سبيلهم، بل يخلون لهم الطريق؛ ليجوسوا خلال الديار وهذا ما تم في عهد عمر بن الخطاب ﷺ سنة 16هـ حين فتح ايلياء أو مدينة بيت المقدس، فقد جاس وجاس معه المسلمون خلال الديار ولم يحدث منهم تدمير أو تخريب كما فعل بختنصر وجنوده من الفرس، فإنهم دمّروا الهيكل وحطموا المدينة، واخذوا بني إسرائيل وبناتهم أسرىٰ إلىٰ بابل.

هذا إلىٰ أن الفرس وقت ذاك كانوا مجوسا يعبدون النار وقوله تعالىٰ {عباداً لنا} يُشعر

(1) اليهود في القرآن ص92 عفيف طبارة.

بأن المراد بهم المسلمون لأنهم الذين يعبدون الله وحده، ويشرفون بالانتساب إليه جل شأنه، ومما يؤيد ذلك قولُ الله بعد ذلك {أولى بأس شديد} فإن هذا الوصف يذكّرنا بقول الله تعالى {محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار}[1].

ويُفهم من قول الله بعد ذلك {ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا} ما يؤكد أن المراد بهم العرب المسلمون؛ لأن اليهود لم تكن لهم كرة على الفرس ولم يعرف لهم موقف مع الفرس يُفهم منه ذلك، وإنما كانت الكرة على العرب المسلمين بمعونة الاستعمار وجهود الصهيونية العالمية، وهذا ما يشهد به واقعهم في فلسطين حتى صاروا مع من يتفقون معهم ويظاهرونهم على حرب العرب والمسلمين أكثر نفيرا.

أما المرة الثانية من الفساد فهي ما فعلة ويفعله بنو إسرائيل الآن، فقد استشرى شرهم وتفاقم خطرهم وأصبحوا مع الدول الاستعمارية حربا لا تنطفئ لها أوراء على كل القيم والفضائل الإنسانية، ومن ثم نلمح مصيرهم فيما يفهم من قوله تعالى {فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيرا} فإن هذا يعني أن الذين سلطهم عليهم في المرة الأولى هم الذين سيمكنهم في المرة الثانية – لأن مرجع الضمير واحد – ولكن مصيرهم في هذه المرة – الثانية – سيكون السوء الذي نظهر آثاره على وجوههم، والخراب والدمار لديارهم، فإن معنى التتبير الهلاك، ومعنى {وليتبّروا ما علوا } ليهلكوا ما يتمكنون منه ويتسلطون عليه، وسيتمكن العرب والمسلمون بعون الله من الانتصار عليهم[2].

وفي تفسير هداية البيان إشارة إلى نفس المعنى إلا أنه يختلف مع الرأي الأول في مرجع الضمير {ثم رددنا لكم الكره عليهم} فيجعله راجعا إلى اليهود لا إلى المسلمين فيقول: الكره هي الرجعة، وذلك بعد أن سطعت شمس الإسلام بنور الله، ودالت دولتا الفرس والروم وعاش بنو إسرائيل في أرض الله بالأمن والرزق والمال، وبعد أن حاولوا الإفساد وارتكاب المؤامرات عدة مرات سلط الله عليهم نبييه وصحابته فنالوا منه العقاب على يد المسلمين ما

(1) الفتح من الآية 29.

(2) ص 33 للشيخ عبد الرحيم فودة نشر الأمانة العامة لمجمع البحوث الإسلامية بالازهر.

سجله التاريخ في السيرة حتى انتهوا من جزيرة العرب، وقد عاود بنو إسرائيل الفساد في الأرض بعد أن شعروا بضعف المسلمين وتفرقهم فسعوا بمعونة الاستعمار الغربي إلى تأسيس دولتهم في فلسطين

ولما بين الله تعالى أنهم حين عصوا سلط عليهم أعداءهم مهد لقاعدة كليه في الإحسان والإساءة قائلاً: {إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيراً } وقوله تعالى {فإذا جاء وعد الآخرة} أي حان وعد عقابكم المقدر في المرة الثانية وهو ما أفسده بنو إسرائيل في هذه الحقبة من الزمن في عهد النبي ﷺ ثم في بلاد العالم كما حصل منهم في ألمانيا حيث كانوا يشترون الأطعمة ويحرقونها فسلط الله عليهم هتلر فقتل منهم خلقاً كثيراً وعذبهم أشد العذاب، ثم يأتي دور المسلمين وهو ما يشير إليه قوله {ليسوءوا وجوهكم} أي أن المسلمين يسوءون وجوهكم أي يخزونكم بما يفعلون بكم وليدخلوا المسجد الأقصى كما دخلوه أول مرة أي ليدخله المسلمون اليوم كما دخله أسلافهم من الصحابة أول مرة أيام الفتح الإسلامي في زمن عمر بن الخطاب وهذه المرة لا تدخل في المرة الأولى بل هي من مرات الفترة الثانية بدليل دخول المسجد؛ لأن الكفار لم يدخلوا المسجد قط، ولأن اليهود لم يكونوا شيئا يذكر أيام الفتح الإسلامي لبيت المقدس حيث أخذ من الروم، ودخول المسجد دليل الاحترام أول مرة ولم يكن ذلك إلا للمسلمين حيث دخلوه وصلوا فيه، {وليتبروا ما علو تتبيرا} ليدمروا في حالة علوهم عليكم كل شيء ويحقق لهم النصر[1].

ويظهر جلياً من الرأيين المشار إليهما في المصدرين المذكورين في تفسير الآية إلى أن المرة الثانية يقصد بها دخول المسلمين المسجد الأقصى كما دخله أسلافهم من الصحابة أيام الفتح في المرة الأولى ومن حجج هذين الرأيين:

إن الذين شردوا اليهود في التاريخ القديم لم يدخلوا المسجد وأن اليهود لم يكونوا شيئا يذكر أيام الفتح الإسلامي حيث أخذه عمر من الروم، وان التدمير على يد البابليين والأشوريين والفراعنة والروم لم يكن علي يد عباد الله أولي البأس الشديد كما جاء في الآية

(1) ج 2 ص324 الشيخ راشد الفرحان.

فالمشار إليهم هم المسلمون لا غيرهم، وانه بعد هذه المرة الثانية لن تقوم لهم دولة وأن أقصىٰ ما يمكنهم الحصول عليه هو الرحمة {عسىٰ ربكم أن يرحمكم} ومادام اليهود الآن أصحاب دولة فإن هذا يعني أن المرة الثانية لم تأت بعد، وأنه بعد أن تأتي لن تقوم لهم بعدها دولة، ولن يتوقعوا بعدها سوىٰ الرحمة لضعفهم وهذا ما ذهب إليه الرأيان المشار إليهما.

التأمل السادس:

سبقت الإشارة إلىٰ أن هذه السورة من أسمائها سورة سبحان وسورة الإسراء وسورة بني إسرائيل حيث ذكر فيها من أحوال بني إسرائيل ما لم يذكر في غيرها. وكان الصحابة يسمونها سورة بني إسرائيل وقد ورد هذا الاسم في بعض كتب الحديث.

وإذا عددنا ورود كلمة القرآن في القرآن الكريم وجدنا أن عدد مرات ورودها ثمان وخمسون مرة موزعة علي أربعة وثلاثين سورة من سور القرآن الكريم.

وقد ورد لفظ القرآن في بعض السور مرة أو مرتين أو ثلاث مرات ولم يذكر أربع مرات إلا في سورتين هي النمل والقمر، وهي أكثر مرات ورود هذه الكلمة في سورة واحدة ما عدا سورة بني إسرائيل حيث ورد فيها لفظ القرآن عشر مرات[1].

ولابد أن يكون لهذا مغزىٰ وعبرة ودلالة وأرىٰ – والله أعلم أن الله سبحانه وتعالىٰ وهو يعلم منذ الأزل قبل أن يوجد الكون وما فيه أن المسجد الأقصىٰ سيدنس من قبل اليهود، وان لا خلاص لهذا المسجد المبارك من كيدهم وضلالهم إلا بالرجوع للقرآن الكريم الذي تكرر ذكره في هذه السورة عشر مرات أي أضعاف ما ذكر في أي سورة أخرىٰ

هذا القرآن الذي قال الله فيه {إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم}[2] في كل مجالات الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية وفي الآخرة، أيضاً والذي غير وجه الحياة فلولاه لعاش الإنسان عبدا للأصنام وللطبيعة التي حولها الإسلام من معبود للإنسان إلىٰ خادم له حيث سخر ما في الكون لمصلحة الإنسان في هذه الحياة هو الذي بإتباعه يتم تخليص المسجد الأقصىٰ.

(1) الآيات 9-41-45-46-60-78-78-82-88-89.

(2) الإسراء من الآية 9.

وإذا ما أراد المسلمون حقا تحرير المسجد الأقصى أولى القبلتين وثالث الحرمين فما عليهم إلا الرجوع إلى القرآن يطبقونه كما طبقه رسول الله ﷺ فلم يهادن ولم يضعف أمام العدو مهما كان عدده وعدته ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله.

وبعد هذه التأملات في بعض ما جاء في هده السورة الكريمة فيما يتعلق بالإسراء كمعجزة وبتاريخ بني إسرائيل وإفسادهم في الأرض حيث إن لهاذين الجانبين علاقة بالسيرة أعود إلى ما أشارت إليه بعض المصادر في حديثها عن عناد المشركين.

يقول ابن هشام فيما رواه الحسن: فمضى رسول الله ﷺ ومضى جبريل عليه السلام حتى انتهي به إلى باب المقدس فوجد فيه إبراهيم وموسى وعيسى في نفر من الأنبياء عليهم السلام فصلى بهم ثم أتي بإنائين في احدهما خمر وفي الأخر لبن فأخذ رسول الله ﷺ إناء اللبن وشرب منه وترك إناء الخمر فقال له جبريل: هديت إلى الفطرة[1]، وهديت أمتك يا محمد وحرمت عليكم الخمر، ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى مكة فلما أصبح غدا على قريش فأخبرهم الخبر، فقال أكثر الناس هذا والله الأمر البين، والله إن العير لتطرد شهراً من مكة إلى الشام مدبرة وشهراً مقبلة، افيذهب ذلك محمد في ليلة واحدة ويرجع إلى مكة؟ فارتد كثير ممن كان اسلم.

وذهب الناس إلى أبي بكر فقالوا له: هل لك يا أبا بكر في صاحبك؟ يزعم انه قد جاء هذه الليلة بيت المقدس وصلي فيه ورجع إلى مكة فقال لهم أبو بكر: إنكم تكذبون عليه. فقالوا بلي هاهو ذلك في المسجد يحدث به الناس. فقال أبو بكر: والله لئن كان قاله لقد صدق، فما يعجبكم من ذلك؟ فوالله إنه ليخبرني أن الخبر ليأتيني من السماء إلى الأرض في ساعة من الليل أو نهار فأصدقه فهاذا أبعد مما تعجبون منه.

ثم أقبل حتى انتهي إلى رسول الله ﷺ فقال: يا بني الله أحدثت هؤلاء القوم أنك جئت بيت المقدس هذه الليلة؟

قال نعم قال يا نبي الله صفه لي فاني قد جئته قال الحسن فقال رسول الله ﷺ فرفع لي حتى نظرت إليه. وجعل يصفه لأبي بكر ويقول أبو بكر صدقت أشهد انك رسول الله كلما

(1) انظر السيرة الحلبية ج1ص389.

وصف له منه شيئا قال صدقت أشهد أنك رسول الله حتى انتهى فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر وأنت يا أبا بكر: الصديق فيومئذ سماه الصديق[1]

وفي هذه الرواية عبارة واحدة تحتاج إلى توضيح وهي:

أن أبا بكر لما طلب من الرسول ﷺ وصف المسجد الأقصى ليس شكاً منه في صدق الرسول لأنه قد صدقه منذ البداية ولكن أراد أن يقيم الحجة على المشركين والمكذبين وأكثرهم يعرف المسجد الأقصى فهو بالشام وهم بالمدينة التي يرحلون إليها كما يرحلون إلى اليمن في رحلتي الشتاء والصيف.

وقد أراد الرسول ﷺ ألا يبقي لهم عذراً فأجابهم عن كل أسئلتهم حتى إنهم طلبوا منه أن يأتيهم بدليل على ما شاهده في الطريق فاخبرهم أنه مر ببعير لبني فلان بوادي كذا فأنفرهم صوت الدابة فند لهم بعير فدلهم عليه وأنه مر بضجنان[2] بعير بني فلان ووجد القوم نياما، ولهم إناء به ماء فشربه ورد عليه غطاءه، وان عيرهم الآن تنزل من مكان عال قرب مكة في مقدمتها جمل أورق – أي بين الغبرة والسواد – عليه غرارتان احدها سوداء والأخرى برقاء أي بألوان مختلفة.

وعندما حضرت القافلة سألوهم عن كل ما قال فوجدوه حقا ولكنهم أبوا أن يصدقوه.

واخرج أبويعلي عن أم هاني بنت عبد المطلب رضي الله عنها إنه لما أسرى به ﷺ أصبح يحدث نفراً من قريش وهم يستهزئون به، فطلبوا منه آية فوصف لهم بيت المقدس وذكر لهم قصة العير فقال الوليد بن المغيرة: هذا ساحر فانزل الله {وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس}[3] ومن العبر في هذه المعجزة ما يلي:

1- الإسراء من معجزات الرسول ﷺ وقد ثبت بالقرآن الكريم في آيات محكمة لا تحتمل الجدل فهي ليست من المتشابه الذي يحتمل التأويل ولذلك اجمع العلماء علي أن منكرة كافر؛ لأنه ينكر الخبر الصادق في القرآن الكريم.

(1) سيرة ابن هشام ج1ص251 والسيرة النبوية لدحلان ص278والسيرة الحلبيه ج1ص379

(2) ضجنان: جبل بناحية تهامه.

(3) أسباب النزول ص278.

2- وهو آية عظيمة على صدق رسول الله وصدق رسالته ﷺ .

3- وهو امتحان خرج به ضعاف الإيمان من صفوف المسلمين ولم يبق منهم إلا المؤمن صادق الإيمان الذي زادته هذه المعجزة إيماناً.

4- وهو دليل علي القدرة الإلهية التي لا يمارى فيها إلا كافر أو معاند.

5- وفيه تكريم للرسول ﷺ وإعلاء لقدرة كما أن فيه دليلا على أن أصل الرسالات السماوية واحد فقد أراد الله سبحانه أن يجمع بالإسراء بين الإسلام الذي نزل بمكة مع الديانات السابقة التي نزلت في بيت المقدس فنال الرسول شرف هذه الأمكنة جميعها

6- فرضت الصلاة في هذه الليلة فهي أول فريضة عملية يفرضها الله علي عباده في السماء إعلاء لشانها ورفعا لقدرها ومنزلتها

7- كان الإسراء تعزية للرسول وتسلية له لما اشتد به أذى المشركين وضاقت السبل أمام الدعوة فكانت استجابة لدعاء الطائف الذي دعا به الرسول في تلك الساعات الحرجة التي أعقبت أذى أهل الطائف واستهزاءهم به فالله لا يخذله ولا يتخلى عنه وان تخلى عنه أهل الأرض جميعا. ومن كان الله معه فلا غالب له.

وفي هذه المعجزة التي خلدها القرآن الكريم من الحكم والعبر ما لا يأتي على الإحاطة به بشر، ولا مجال للعجب من أمر هو من متعلقات قدرة الله ولكن العناد يعمي ويصم.

أما المعراج وهو عروج النبي ﷺ إلى السماء فقد ورد في بداية سورة النجم واختلفت فيه أقوال المفسرين، وحسبنا الإيمان به، وعلم اليقين في كيفيته عند الله سبحانه وتعالى

فريضة الصلاة والوضوء:

لا خلاف بين المسلمين أن الصلاة فرضت ليلة الإسراء والمعراج قبل الهجرة بسنة في ليلة السابع والعشرين من رجب على الراجح[1] وقال ابن إسحاق حين افترضت الصلاة على رسوله ﷺ أتاه جبريل عليه السلام وهو با على مكة فهمز له بعقبه في ناحية الوادي فانفجرت منه

(1) المراجع السابقة.

عين فتوضأ جبريل عليه السلام، ورسول الله ﷺ ينظر إليه؛ ليريه كيف الطهور للصلاة، ثم توضأ الرسول ﷺ كما رأى جبريل توضأ، ثم قام به جبريل فصلى به، وصلى رسول الله ﷺ بصلاته ثم انصرف جبريل عليه السلام [1].

أوقات الصلاة:

وعن ابن عباس قال: لما افترضت الصلاة على رسول الله ﷺ أتاه جبريل عليه السلام فصلى به الظهر حين مالت الشمس ثم صلى به العصر حين كان ظله مثله ثم صلى به المغرب حين غابت لشمس، ثم صلى به العشاء الآخرة حين ذهب الشفق، ثم صلى به الصبح حين طلع الفجر، ثم جاءه - في اليوم الثاني - فصلى به الظهر حين كان ظله مثله، ثم صلى به العصر حين كان ظله مثليه، ثم صلى به المغرب حين غابت الشمس لوقتها بالأمس ثم صلى به العشاء الآخرة حين ذهب ثلث الليل الأول ثم صلى به الصبح مسفرا غير مشرق ثم قال: يا محمد: الصلاة فيما بين صلاتك اليوم وصلاتك بالأمس.

ويؤخذ من هذا الأحكام التالية:

1- الطهارة للصلاة واجبة وهي بالصورة التي نقلت عن الرسول ﷺ كما تلقاها عن جبريل فلا يستطيع أحد أن يزيد فيها ولا ينقص بعد بيان الكتاب والسنة.

2- الصلاة أيضاً لا مجال فيها للاجتهاد ولا القياس فلا بد أن تكون بالصورة المنقولة بالتواتر عن النبي ﷺ، وقد قال صلوا كما رأيتموني أصلي.

3- اخذ العلماء من هذا أن للصلاة وقتين وقت اختياري وآخر اضطراري تشترك فيه مشتركتا الوقت وهو خاص بالظهر والعصر والمغرب والعشاء، واختلفوا هل للمغرب وقت اختياري وآخر اضطراري مع العشاء أولها وقت واحد، وقد فصلت كتب الفقه هذه الآراء.

4- تتجلى رحمة الله ولطفه بعباده في أن جعل وقت كل صلاة واسعا علاوة على الوقت الضروري لأصحاب الأعذار. وإنه أبقى أجر الخمسين على خمس صلوات في اليوم والليلة.

(1) سيرة ابن هشام ج1ص152.

عرض الرسول الإسلام على القبائل

لم يترك النبي ﷺ فرصة يجتمع فيها العرب إلا انتهزها فكان يغتنم فرص تجمعهم في أسواقهم ليعرض عليهم الإسلام وكان بعضهم يرد ردا جميلا وبعضهم يرد ردا سيئا كما كان بنو حنيفة رهط مسيلمة وهم الذين هجاهم أحد الشعراء عندما حلت بهم المجاعة وكان لهم صنم من تمر فأكلوه، فقال هدا الشاعر: أكلت حنيفة ربها.

وكان من بين القبائل التي كانت تأتى للكعبة للحج ولحضور تلك التجمعات التي تعقد للشعر والمفاخرة كان من بين تلك القبائل قبيلتا الأوس والخزرج من يثرب وهى مدينة بين مكة والشام وكانت قبيلتا الأوس والخزرج على ما بينهما من قرابة في عداء مستمر وكان اليهود يوغرون صدورهم، ويذكون بينهم نار الفتنة والبغضاء وقد تحالف الأوس مع بنى قريظة وتحالف الخزرج مع بنى النضير وبنى قينقاع وكان آخر يوم بينهم يوم بعاث الذي قتل فيه عدد كبير من رؤسائهم. وقد خطر ببال رؤساء الأوس أن يحالفوا قريشا على الخزرج فجاء منهم وفد لهذا الغرض، فعرض عليهم الرسول ﷺ الإسلام وقال لهم: هل لكم في خير مما جئتم له؟ أن تؤمنوا بالله وحده ولا تشركوا به شيئا وقد أرسلني الله إلى الناس كافة وتلا عليهم القرآن فقال اياس بن مُعاذ أحد رجال الوفد: يا قوم هذا والله خير مما جئنا له، ولكنهم لم يستمعوا لنصح اياس وأعماهم الحقد والبغضاء على أبناء عمومتهم وهكذا الحقد يُعمي ويصم.

هداية الله تعمر قلوب الأنصار

وفي المرسم التالي جاء إلى مكة ستة من الأنصار كلهم من الخزرج وهم اسعد بن زرارة أبو أمامه، وعوف بن الحارث من بني النجار، ورافع بن مالك من بني زريق: وقطبه بن عامر من بني سلمه، وعقبه به عامر من بنى حرام، وجابر بن عبد الله من بني عبيد.

ولقيهم عند العقبة فقال لهم: من انتم؟ قالوا: نفر من الخزرج. قال: أمن موالى اليهود؟ قالوا: نعم. قال: أفلا تجلسون أكلمكم؟ قالوا بلى فجلسوا معه، فدعاهم إلى الله ﷻ وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن.

وقد أراد الله بهؤلاء النفر خيرا فقال بعضهم لبعض: هذا هو النبي الذي كان يتوعدكم

به اليهود، ويستفتحون به عليكم ويقولون: أن نبيا قد أظل زمانه فلتقاتلنكم به قتل عاد وارم[1]، فلا ندع اليهود يسبقوننا إليه، فصدقوه وآمنوا به وطلبوا منه أن يبلغوا قومهم بما سمعوا فإذا استجابوا كان ذلك عزة ومنعة للرسول ﷺ، وانصرفوا راجعين إلى قومهم بالمدينة.

فلما رجعوا إلى المدينة ذكروا ذلك لأهلهم فلم تبق دار في المدينة من دور أهلهم إلا وفيها مسلم أو أكثر، وشاع ذكر الإسلام فيهم.

بيعة العقبة الأولى ومصعب بن عمير

في العام التالي للعام الذي هدى الله فيه النفر الستة الذين رجعوا إلى المدينة أقبل علي الرسول ﷺ اثنا عشر رجلا فلقوه بالعقبة وكان الستة السابقون عدا جابر ومعهم: معاذ بن الحارث، وعبادة بن الصامت، وذكوان بن قيس ويزيد بن ثعلبة، والعباس بن عبادة، وأبو الهيثم بن التيهان وعويم بن ساعدة، وكان عشرة من الخزرج واثنان من الأوس وهما أبو الهيثم وعويم

واجتمعوا بالرسول ﷺ عند العقبة، وبايعوه ﷺ على بيعته للنساء على ألا يشركوا بالله شيئا، ولا يسرقوا ولا يزنوا ولا يقتلوا أولادهم، ولا يأتوا ببهتان يفترونه بين أيديهم وأرجلهم، ولا يعصونه في معروف فإن وفوا فلهم الجنة وإن غشوا في ذلك شيئا فأمرهم إلى الله ﷻ إن شاء غفر وإن شاء عذب. وكان ذلك قبل أن يفترض الحرب وأرسل الرسول ﷺ مصعب بن عمير رضي الله عنه ليقرئهم القرآن ويصلي بهم حيث إن العداوة بين الأوس والخزرج جعلت كل فريق يكره أن يؤمه الآخر. وفي بعض المصادر أرسل مع مصعب عبد الله بن أم مكتوم ابن خالة خديجة رضي الله عنها ونزل مصعب بن عمير عند أبي أمامة أسعد بن زرارة واخذ يدعو بقية الأوس والخزرج إلى الإسلام وبينما كان مصعب وأسعد بن زرارة جالسين في بستان ومعهما بعض الرجال قال سعد بن معاذ رئيس قبيلة الأوس لابن عمه أسيد بن حضير ألا تقوم إلى هذين الرجلين حتى لا يفسدا ضعفاءنا، فقام أسيد بحربته واتجه إليهما فلما رأى سعد بن زرارة قال لمصعب: هذا سيد قومه قد جاءك فلما جلس قال: ما جاء بكما تسفهان

(1) كان اليهود يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله قبل مبعثه وقد سبقت الاشارة إلى هذا.

ضعفاءنا؟ فقال له أفلا تجلس فتسمع فإن رضيت ما سمعت وإلا كففنا عنك فجلس وقرأ عليه مصعب آيات من القرآن فوقع الهدي في قلبه واسلم ونطق بالشهادة.

ورجع إلى ابن عمه سعد بن معاذ فسأله عما فعل فقال: والله ما أرى بهما بأساً فغضب سعد وقدم إليهما فخاطبه مصعب بمثل ما خاطب به أسيدا فوقع الهدى في قلب سعد أيضاً واسلم. ورجع إلى رجال من بني عبد الأشهل وهم بطن من الأوس فقال لهم ما تعدونني فيكم؟ قالوا: سيدنا وابن سيدنا فقال: كلام رجالكم ونسائكم علي حرام حتى تسلموا فلم يبق بيت من بيوت بني عبد الأشهل إلا دخله الإسلام وانتشر الإسلام في دور يثرب، ولم يكن هناك حديث إلا عن الإسلام.

ومن العبر المستفادة:

1- وجوب إرسال الدعاة لنشر الإسلام وتبصير الناس بأحكام الدين.
2- لا يؤم الإمام قوما كارهين له وقد كره الأوس والخزرج أن يؤم أحد منهم الآخرين فكان مصعب إمامهم في الصلاة، وكلهم راضون به
3- وجوب تحلي الداعية بالحكمة والموعظة الحسنة والإقناع كما فعل مصعب مع أسيد به حضير وسعد بن معاذ

بيعة العقبة الثانية:

وفي العام الذي يلي بيعة العقبة الأولى قدم مكة عدد كبير من المدينة منهم من اسلم ومنهم من لم يسلم وقابل وفداً من المسلمين منهم رسول الله ﷺ، واتفقوا علي اللقاء ليلا عند العقبة وكان في موسم الحج.

وأمرهم الرسول ﷺ أن يكتموا الخبر، ولا يوقضوا نائماً ولا ينتضروا غائباً لئلا يسمع المشركون فيفسدوا عليهم. وتوجهوا إلى العقبة بعد مضي ثلث الليل ن وكانوا يتسللون خلسة يذهب الرجل والرجلان ويتبعهم غيرهم حتى بلغ العدد ثلاثة وسبعين رجلا منهم اثنان وستون من الخزرج واحد عشر من الأوس ومعهم امرأتان هما: نسيبة بنت كعب (أم عمارة) من بني النجار ن وأسماء بنت عمر ومن بني سلمة .

وحضر الرسول ﷺ ومعه عمه العباس، ولم يكن اسلم إلا انه أراد أن يستوثق لابن أخيه.

وكان العباس أول متكلم فقال: إن محمداً حيث علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن هو علي مثل رأينا فيه ن فهو في عزة من قومه ومنعة في بلده ن وانه قد أبي إلا الانحياز إليكم ن واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، وما نعوه ممن خالفه ن فانتم وما تحملتم من ذلك ن وان كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج إليكم فمن الآن فدعوه، فإنه في عز ومنعه من قومه وبلده، وإنكم لبمكان عظيم. فقال كبيرهم البراء بين معرور: والله لو كان لنا في أنفسنا غير ما ننطق به لقلناه ن ولكننا نريد الوفاء والصدق، وبذل مهجنا دون رسول الله ثم قالوا قد سمعنا ن فتكلم يا رسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت. فتكلم رسول الله ﷺ فتلا القرآن د ودعا إلى الله ورغب في الإسلام ثم قال:

أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم فأخذ البراء بن معرور[1] بيده ثم قال: نعم والذي بعثك بالحق لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا، فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أبناء الحروب. وأهل الحلقة ورثناها كابرا عن كابر ثم قال أبو الهيثم بن التيهان يا رسول الله، إن بيننا وبين الرجال حبالا وإنا قاطعوها - يعني اليهود - فهل عسيت أن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: بل الدم الدم والهدم الهدم[2] أنا منكم وانتم مني أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم ثم قال لهم رسول الله ﷺ اخرجوا إلي منكم اثني عشر نقيبا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس.

وهؤلاء النقباء هم:

أبو الهيثم بن التيهان، واسعد بن زرارة، وأسيد بن حضير، والبراء بن معرور ورافع بن مالك، وسعد بن أبي خيثمة، وسعد بن الربيع، وعبد الله بن رواحه، وعبد الله بن عمرو وعبادة بن الصامت، وسعد بن عباده والمنذر بن عمرو[3]. ومعظمهم من السابقين إلى الإسلام من الأنصار وحضر العقبة الأولى.

---

(1) وفي بعض المصادر أول من بايع أسعد بن زرارة.

(2) كانت العرب تقول عند عقد الحلف والجوار: دمي دمك وهدمي هدمك أي ما هدمته من الدماء أو أهدرته هدمته أنا.

(3) سيرة ابن هشام جـ 1 280 ونور اليقين.

وقال لهم الرسول ﷺ انتم كفلاء على قومكم ككفالة الحوار يبين لعيسى بن مريم، وأنا كفيل علي قومي

وتشاء حكمة الله سبحانه وتعالى أن يبلغ خبر هذه البيعة مشركي قريش فقالوا: يا معشر الخزرج بلغنا أنكم جئتم لصاحبنا تخرجونه من أرضنا وتبايعونه على حربنا؟ فأنكروا ذلك وصار بعض المشركين الذين لم يحضروا المبايعة يحلفون لهم إنهم لم يحصل منهم شيء في ليلتهم، وعبد الله بن أبي كبير الخزرج يقول ما كان قومي ليفتاتوا عليّ بشيء من ذلك[1].

وروى ابن هشام قصيدة لكعب بن مالك عدد فيها أسماء النقباء وحرصهم على الوفاء بما بايعوا عليه، وأنهم لايعبأون بما تقول قريش ومن هذه القصيدة:

وابلغ أبا سفيان أن قد بـدا لنا : : بأحمد نور من هدى الله ساطع
فلا ترغبن في حشد أمر تريده : : وألّب وجمّع كل ما أنت جامع[2]

وقد خلد القرآن الكريم هده البيعة المباركة التي أصبحت نصرا مؤزرا للإسلام، وفتحت أمام الدعوة آفاقا واسعة وهيأت لبذورها تربة صالحة في أرض طيبة هي أرض المدينة المنورة، ومهدت للهجرة المباركة.

ونزل قول الله تعالى {إن الله اشترى من المؤمنين أموالهم وأنفسهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم}[3].

وفي أسباب نزولها: اخرج ابن جرير عن محمد بن كعب القرظى قال. قال عبد الله بن رواحة لرسول الله ﷺ: اشترط لربك ولنفسك ما شئت. قال: اشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا، واشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم. قالوا: فإذا فعلنا ذلك فما لنا؟ قال: الجنة. قالوا: ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل فنزلت الآية[4].

(1) نور اليقين 55.
(2) أنظر سيرة ابن هشام جـ 281.
(3) التوبة الآية 111.
(4) أسباب النزول ص258.

ولما كانت العقبة الأولى قبل الإذن بالقتال ومازال المسلمون بمكة فليس فيها ذكر للحرب أما في بيعة العقبة الثانية فقد بايعوا على حرب الأحمر والأسود[1] باعتبار المستقبل.

ومن الدروس والعبر في هذه البيعة العظيمة:

1- حسن التدبير: فقد حرص الرسول ﷺ على السرية والكتمان حتى لا يفسد المشركون الأمر.

2- التوثيق: حيث تأكد الرسول ﷺ من صدق عزيمتهم وقد اشترط عليهم أن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وأبناءهم فلا فائدة من حلف ضعيف مبني على غير أساس.

3- لم يكن الرسول في موقف الضعيف أو المضطر الذي يرضى بأدنى الحلول أو أنصافها، وإنما أراد مبايعة مشرفه وحلفا متكافأ، وهذا ما جعل العباس يخبرهم بأنه في منعة من أهله من كل عدو.

4- تقدير الرسول ﷺ لموقف المبايعين فلم يعترض على قولهم إنهم يخافون أن يتركهم للعدو إذا أظهره الله ويرجع إلى قومه، وإنما تبسم علامة الرضى والقبول، وهم محقون في أن يأخذوا كل الاحتياط للأمور المتوقعة.

5- إن أمراً جسيما كهذا تترتب عليه آثار كبيرة وحروب ليس من السهل أن يؤخذ على عجل بل لابد أن تدرس كل جوانبه، وهذا ما كان من اشتراطات مؤكدة.

6- حسن التنظيم وتحديد المسؤولية: ويبدو هذا جليا في اختيار النقباء حتى يسهل تدبير الأمور مع عدد محدود تنحصر فيهم المسؤولية بدلا من إبقاء الأمر سائبا في عدد غير محدد.

7- الحرص على الجوانب النفسية فقد كان النقباء من الأوس والخزرج حتى لا يهضم أحد، ويجد المغرضون فرصة لإثارة الشقاق بين الطرفين بحجة أن أحد الطرفين تم إغفاله أو تناسيه.

(1) سيرة ابن هشام ج1ص286.

8- اليأس عدو يقتل الأمل، ولهذا كان الرسول ﷺ ضد اليأس، فإذا ما سد أمامه باب بحث عن غيره.

9- لا يستهين الإنسان بأي تقدم يتحقق، فقد بدأ الإسلام في الأنصار بواحد[1] ثم ستة، ثم تضاعف العدد أضعافاً وهكذا كما يقال أول الغيث قطرة، ورحلة الألف ميل تبدأ بخطوة.

10- كما للخير ناس هداهم الله، فللشر أهله أيضاً ولابد من الحيطة والحذر، وهذا لا يتنافى مع التوكل الذي هو من عمل القلوب ولا يتنافى مع الاحتياط بل يوجبه.

11- لو لم تعلم قريش بالبيعة لقالوا لو سمعنا بها لأحبطناها ولكنهم سمعوا ولم يستطيعوا فعل شيء.

السخرية من صنم:

بعد رجوع الذين اعتنقوا الإسلام إلى المدينة أظهروا الإسلام وأخذت الدعوة الإسلامية تنتشر.

وكان أحد شيوخهم واسمه عمرو بن الجموح اتخذ صنما من خشب نصبه في داره تأثرا منه بما كان يراه عند أهل مكة من المشركين.

وكان ابن معاذ أحد الذين شهدوا بيعة العقبة، فاتفق مع بعض فتيان بني سلمة منهم معاذ بن جبل وآخرون فكانوا يذهبون ليلا ويطرحون الصنم في الحفر المعدة للقذارة، فيأتي عمرو في الصباح فيجده ملقي علي الأرض فيغسله ويدهنه بالطيب ويعيده إلى مكانه متوعدا من فعل هذا بالإله الذي يعبده، ويكرر الفتية ما فعلوا، ويكرر هو إرجاعه.

ولما أكثروا عليه علق في كتفه سيفاً يحمي به نفسه، فوجده في اليوم الثاني منكساً على رأسه في بئر مملوءة بالقاذورات وقرنوا به كلباً ميتاً وقد جردوه من سيفه، فأيقن أن هذا الصنم لا ينفع ولا يضر وقد عجز عن حماية نفسه فضلا عن غيره، وكلمه من أسلم في أمر الإسلام فهداه الله إلى الإيمان وقال ارجوزة مطلعها:

(1) هذا الواحدهو: اياس بن معاذ كما سبق.

والله لـــو كنـــت إلها لم تكـــن : : أنت وكلب وسط بئــر في قـــرن[1]

وهكذا ظهر عجز الإله الذي كان يعبده ويطلب منه أن يحميه:

وهل يدفع المكروه عن غيره الذي : : يصاب فلا يقوى على حفظ نفسه؟

مؤامرة المشركين في دار الندوة[2]:

اغتاظ المشركون من قريش عندما علموا أن الرسول ﷺ قد وجد أنصارا أقوياء يشدّون أزره في يثرب، ولم ينفع أذاهم لمن اسلم فاجتمعوا في دار الندوة وهي دار قصي بن كلاب لا يجتمعون فيها إلا لعظائم الأمور، وتدارسوا الأمر فيما بينهم فمنهم من رأى حبسه حتى لا يلحق بأصحابه الذين اخذوا يتسللون خفية إلى يثرب، ومنهم من رأى نفيه وإخراجه، واختلط عليهم الأمر. ويقال أن أبا جهل اقترح عليهم أن يتخيروا من كل قبيلة شابا جلدا فيقتلوا محمدا فيتفرق دمه بين القبائل فلا يستطيع بنو عبد مناف محاربة القبائل مجتمعة.

وتربص الفتيان بالرسول ﷺ، أمام داره ليقتلوه عندما يخرج. وأوحى الله إلى الرسول بما دبروا: فأمر عليا كرم الله وجهه بأن يبيت في فراش الرسول ﷺ ويتشح ببردته، وان يقوم بتأدية الأمانات التي كان ﷺ مؤتمنا عليها قبل أن يلحق به في دار الهجرة.

وهكذا فشلت المؤامرة. وقد اثبت القرآن الكريم ما حدث في هذه المؤامرة في قوله تعالى: {وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يُخرجوك ويمكرون ويمكر الله، والله خير الماكرين}[3] وفي أسباب نزولها :

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس أن نفراً من قريش ومن أشراف كل قبيلة اجتمعوا ليدخلوا دار الندوة فاعترضهم إبليس – لعنه الله – في صورة شيخ جليل فلما رأوه قالوا من أنت؟ قال: شيخ من أهل نجد سمعت بما اجتمعتم له، فأردت أن أحضركم: ولن يعدمكم مني رأى ونصح قالوا أجل. فادخل: فدخل معهم فقال: انظروا في شأن هذا الرجل. فقال

(1) سيرة ابن هشام ج1ص285.

(2) انظر محمد رسول الله ص156 ونور اليقين ص56.

(3) الانفال الآية 30 يشتوك: يحبوك.

قائل: احبسوه في وثاق ثم تربصوا به المنون حتى يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء: زهير والنابغة فإنما هو كأحدهم، فقال عدو الله الشيخ النجدي: لا والله ما هذا برأي، والله ليخرجنّه رائد من محبسه إلى أصحابه، فليوشكنّ أن يثبوا عليكم حتى يأخذوه من أيديكم، ثم يمنعوه منكم، فما آمن عليكم أن يخرجوكم من بلادكم، فانظروا غير هذا الرأي فقال قائل: أخرجوه من أظهركم واستريحوا منه، فإذا خرج لا يضركم ما صنع. فقال الشيخ النجدي: والله ما هذا لكم برأي، ألم تروا حلاوة قوله وطلاقة لسانه، وأخذه للقلوب بما يستمع من حديثه؟ والله لئن فعلتم ثم استعرض العرب ليجتمعن عليه ثم ليسيرن إليكم حتى يخرجكم من بلادكم ويقتل أشرافكم، قالوا: صدق والله فانظروا رأيا غير هذا فقال أبو جهل: والله لأشيرن عليكم برأي ما أراكم أبصرتموه بعد، ما أرى غيره، قالوا وما هذا؟ قال: تأخذوا من كل قبيلة وسيطا شابا جلدا، ثم يعطى كل غلام منهم سيفا صارما، ثم يضربونه ضربة رجل واحد فإذا قتلتموه تفرق دمه في القبائل كلها، فلا أظن هذا الحي من بنى هاشم يقدرون على حرب قريش كلهم، وإنهم إذا أرادوا ذلك قبلوا العقل[1] واسترحنا وقطعنا عنا أذاه، فقال الشيخ النجدي: هذا والله هو الرأي، والقول ما قال الفتى لا أرى غيره فتفرقوا على ذلك وهم مجموعون له. فأتى جبريل عليه السلام النبي ﷺ فأمره ألا يبيت في مضجعه الذي كان يبيت فيه، وأخبره بمكر القوم فلم يبت رسول الله ﷺ في بيته تلك الليلة، وأذن الله له عند ذلك بالخروج، وأنزل عليه بعد قدومه المدينة نعمته عليه، {وإذ يمكر بك الذين كفروا} [2] وقوله تعالى: {أم يقولون شاعر نتربص به ربب المنون}[3] .

ومن العبر:

1- المكر لا يجدي نفعاً وهو علامة الضعف على المواجهة لأن المكر يساوي الخديعة[4] فهو أمر يبيت سرا وفي الخفاء. والله منزه عن المكر وإنما هو من المشاكلة اللفظية وهو باب معروف في علوم البلاغة. والمقصود إحباط مكرهم

(1) العقل: الدية.

(2) الأنفال 30، أسباب النزول ص-217-سيره ابن هشام ج1ص303.

(3) أسباب النزول ص396، الطور الآيه30

(4) ترتيب القاموس المحيط.

2- لا يخفي على الله شيء فقد أوحي إلى رسوله بما دبروا.

3- في مشاوراتهم دليل علي تخوفم من صحابة الرسول فهو ليس مقطوعاً وإنما له أتباع تخشي صولتهم ولن يتركوه لما لمسوه منهم من قوة الإرادة، فلم يتركوا دينهم علي ما نزل بهم من أذى وتعذيب.

4- شجاعة علي كرم الله وجهه فهو أول فدائي في الإسلام فقد نام في فراش من ينتظره موت محقق.

5- حرص الرسول ﷺ على أداء الأمانات إلى أهلها فلا يليق وهو الصادق الأمين أن يهاجر ولا يعطي الأمانات لأهلها فأوصى بها عليا كرم الله وجهه.

بداية هجرة المسلمين إلى المدينة:

أذن الرسول ﷺ بالهجرة إلى المدينة بعد أن ضمن فيها أنصارا يكونون سنداً لإخوانهم المهاجرين.

وكان أبو سلمة أول من هاجر ومنع المشركون زوجته من الذهاب معه ثم التحقت به مع أولادها، ورافقها عثمان بن طلحة وأحسن رفقتها حتى أوصلها، وتتابع المسلمون ليجدوا هنالك الأمن والأمان. وبقي الرسول ﷺ بمكة ينتظر إذن ربه بالخروج من مكة والهجرة إلى المدينة.

ولم يكن الأمر ميسوراً فقد وضع المشركون كافة العوائق أمام المهاجرين فقد روي نافع عن عبد الله بن عمر عن أبيه قال: اتعدت أي عمر بن الخطاب لما أردنا الهجرة إلى المدينة أنا وعياش بن أبي ربيعة وهشام بن العاصي بن وائل السهمي فوق سرف وقلنا أينا لم يصبح عندها فقد حبس فليمض صاحباه فأصبحت أنا وعياش عند المكان وحبس عنا هشام حبسه المشركون ومنعوه من الخروج وفتن فافتتن فلما وصلنا المدينة نزلنا في بني عمرو بن عوف بقباء.

وخرج أبو جهل بن هشام والحارث بن هشام إلى عياش وكان ابن عمهما وأخاهما لأمهما حتى قدما علينا المدينة وقالا لعياش إن أمك قد نذرت ألا يمس رأسها طيب ولا مشط ولا تستظل عن شمس حتى تراك. فرق لها.

ونصحه عمر بعدم الذهاب معها حتى لا يفتنه قومه عن دينه ولكنها ألحا عليه حتى قبل، وقال سابر قسم أمي وآخذ مالي وأعود فقال له عمر خذ نصف مالي فهو يكفيك، فلما أصر علي العودة معها أعطاه عمر ناقته وهي ناقة ذلول نجية تنجيك إذا ارتبت في أمرهما. وفي الطريق تحايل عليه أبو جهل والحارث فأوثقاه ورجعا به مقيداً ثم دخلا به مكة وفتناه فافتتن. وقالا يا أهل مكة هكذا تفعلون بسفهائكم.

وقال عمر: كنا نقول: ما الله بقابل ممن افتتن صرفا ولا عدلا ولا توبة قوم عرفوا الله ثم رجعوا إلى الكفر لبلاء أصابهم.

فلما قدم الرسول ﷺ المدينة أنزل الله تعالى {قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا انه هو الغفور رحيم وأنيبوا لي إلى ربكم واسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وانتم لا تشعرون}[1].

فكتبها عمر وأرسل بها إلى هشام فقرأها وعاد إلى المدينة ولحق بالرسول ﷺ وصحابته.

وفي رواية أخرى أن المشركين حبسوا عياش بن ربيعة وهشام بن العاص. فقال الرسول ﷺ من لي بعياش وهشام بن العاص؟ فقال الوليد بن الوليد أنا لك يا رسول الله بهما. فخرج مستخفيا إلى مكة فوجد امرأة تحمل طعاما فسألها فالت: احمله إلى المحبوسين فتتبعها حتى عرف موضعهما، وكانا محبوسين في بيت لا سقف له فتسور الجدار، ثم اخذ مروة[2] فوضعها تحت قيدهما ثم ضربها بسيفه فقطعهما فكان يقال لسيفه بذي المروة ثم حملهما إلى بعيره وعاد بهما إلى المدينة[3].

وأميل إلى الرواية الثانية حيث إن الكثير من المصادر تذكر أن عمر بن الخطاب هاجر علانية فتقلد سيفه وهو يقول: من أراد أن تثكله امة فليلقني خلف هذا الوادي[4].

---

(1) الزمر الآيات 53/ 55 وأسباب النزول ص367 وسيرة ابن هشام ج1ص300

(2) المروة: الحجر.

(3) سيرة ابن هشام نفس الصفحه.

(4) فقه السيره ص179 للبوطي.

ما نزل من القرآن الكريم بمكة:

للعلماء ثلاثة اصطلاحات في المكي والمدني أشهرها أن المكي ما نزل قبل الهجرة والمدني ما نزل بعدها، سواء نزل بمكة أم بالمدينة.

وأخرج عثمان بن سعد بسنده إلى يحيى بن سلام قال: ما نزل بمكة وما نزل في طريق المدينة قبل أن يبلغ الرسول ﷺ المدينة فهو مكي: وما نزل على النبي ﷺ في أسفاره بعد ما قدم المدينة فهو من المدني، وهذا الاصطلاح معياره زمني.

أما الاصطلاح الثاني فهو: إن المكي ما نزل بمكة ولو بعد الهجرة والمدني ما نزل بالمدينة – وهذا الاصطلاح معياره مكاني – وعلى هذا فما نزل بالأسفار لا يطلق عليه مكي ولا مدني وقد اخرج الطبراني في الكبير عن أبي أمامه قال: قال رسول الله ﷺ: انزل القرآن في ثلاثة أمكنه: مكة والمدينة والشام وقال الوليد بن مسلم أحد الرواة للحديث يعني بيت المقدس وقال الشيخ عماد الدين بن كثير تفسيره بتبوك أحسن ويدخل في مكة ضواحيها كمنى وعرفات والحديبية وفي المدينة ضواحيها كبدر وأحد.

أما الاصطلاح الثالث فإن المكي ما وقع خاصا بأهل مكة والمدني ما وقع خاصا بأهل المدينة وحمل على هذا قول ابن مسعود[1] – وهذا الاصطلاح معياره موضوعي– .

وعلى أساس الاصطلاح الأول فإن السور تنقسم ثلاثة أقسام:

قسم مدنيه باتفاق وهي اثنان وعشرون سورة وهي: البقرة وآل عمران والنساء، والمائدة، والأنفال، وبراءة، والنور، والأحزاب، والقتال، والفتح، والحجرات، والحديد، المجادلة، والحشر، والممتحنة، والصف، والجمعة، والمنافقون، والتغابن، والطلاق، والتحريم، وإذا جاء نصر الله.

وقسم فيه خلاف هل هي مكية أو مدنية وهي ثلاث عشرة سورة: أم القرآن والرعد، والنحل، والحج، والإنسان، والمطففون، والقدر، ولم يكن، وإذا زلزلت، وأرأيت، والإخلاص، والمعوذتين.

(1) الاتقان في علوم القرآن للسيوطي ج1ص9.

وقسم مكية باتفاق وهي سائر السور وعددها تسع وسبعون.

وقد وقعت آيات مدنية في سور مكية، كما وقعت آيات مكية في سور مدنية، وذلك قليل مختلف في أكثره[1].

وجاء في الإتقان ما نصه:

عن مجاهد قال سألت ابن عباس عن ما نزل بمكة وما انزل بالمدينة فقال: سورة الأنعام نزلت بمكة جملة واحدة فهي مكية إلا ثلاث آيات منها نزلن بالمدينة: {قل تعالوا اتل} إلى تمام الآيات الثلاث. وما تقدم من السور مدنيات أي البقرة وآل عمران والنساء والمائدة كما نزلت بمكة سورة الأعراف ويونس وهود ويوسف والرعد وإبراهيم والحجر والنحل سوى ثلاث آيات من آخرها فإنهن نزلن بين مكة والمدينة في منصرفة من أحد. كما نزل بمكة سورة بني إسرائيل - الإسراء والكهف ومريم وطه والأنبياء والحج سوي ثلاث آيات: هذان خصمان إلى تمام الآيات الثلاث فإنهن نزلن بالمدينة كما نزل بمكة سورة: المؤمنون والفرقان والشعراء سوي خمس آيات من أخرها نزلن بالمدينة، ونزل بمكة أيضاً النمل والقصص والعنكبوت والروم ولقمان سوى ثلاث آيات من أخرها فإنهن نزلن بين مكة والمدينة في منصرفه من أحد: ولو آن ما في الأرض من شجرة أقلام إلى تمام الآيات فقد نزلت بالمدينة كما نزل بمكة السجدة سوي ثلاث آيات: {افمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً} إلى تمام الآيات الثلاث. كما نزل بمكة سورة: سبأ وفاطر ويس والصافات وص وزمر سوي ثلاث آيات نزلن بالمدينة في وحشي قاتل حمزه رضي الله عنه قل يا عبادي الذين أسرفوا علي أنفسهم إلى تمام الآيات الثلاث. ونزل بمكة الحواميم السبع وق والذاريات والطور والنجم والقمر والرحمن والواقعة والصف والتغابن إلا آيات من أخرها نزلن بالمدينة ونزل بمكة كذلك: الملك ون والحاقة وسال ونوح والجن والمزمل إلا آيتين إن ربك يعلم انك تقوم.

ونزل بمكة المدثر إلى آخر القرآن إلا: إذا زلزلت، وإذا جاء نصر الله، وقل هو الله أحد وقل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس فإنهن مدنيات.

(1) المقدمة الأولى من تفسير التسهيل للكلبي ص5.

ونزل بالمدينة سورة الأنفال وبراءة والنور والأحزاب ومحمد والفتح والحجرات والحديد وما بعدها إلى التحريم مع الأربع المشار إليها في البداية وهي البقرة وآل عمران والنساء والمائدة. وقال السيوطي إسناده جيد ورجاله كلهم ثقاة[1] وأقول ما دام السند صحيحاً فاين عباس ترجمان القرآن وقوله حجة وليس من الضروري معرفة المكي والمدني فهو من فروض الكفاية لا من فروض العين، وقد اختلفت فيه بعض آراء العلماء.

والقرآن هدي للناس أينما نزل في مكة أو في المدينة. وتفصيل القول فيه في علوم القرآن.

مميزات الفترة المكية

قبل اختتام هذا الباب بالهجرة إلى المدينة يمكن أن نصف الفترة المكية بما يلي:

أولا: بدأت هذه الفترة التي امتدت أكثر من عشر سنوات ببدء نزول الوحي علي الرسول ﷺ وسرية الدعوة ثم الجهر بها والبدء بعشيرة الرسول ﷺ وأقاربه.

ثانيا: بدأت هذه الفترة بالسابقين إلى الإسلام ثم انتشر الإسلام في دور مكة وشمل المستضعفين وقليلا من غيرهم

ثالثا: ثبات المؤمنين وصبرهم، وتحملهم الأذى في سبيل عقيدتهم مما يدل علي أن إيمانهم كان عن هدي واقتناع وإلا ما تحملوا في سبيله أشد أنواع العذاب.

رابعا: حلم الرسول ﷺ فقد اعرض عن الجاهلين.

خامسا: سداد رأي الرسول ﷺ فهو يخفف الأزمات عن أتباعه فأمرهم بالهجرة إلى الحبشة عندما اشتد بهم الأذى وضاقت أمامهم السبل.

سادسا: شجاعته ﷺ فهو لم يبال بكبار المعاندين من أمثال أبي جهل الذي كان يخشى سطوته كل رجال قريش ويكفي دليلا على ذلك أنه اشترى إبلا فبخس صاحبها ولم يستطع

(1) ج1ص10.

أحد أن يسوم على سومه خوفاً منه حتى جاء الرسول ﷺ فسامها وأعطى صاحبها ثمناً مرضياً فابتاعها، وعندما باع اثنين منها حصل علي رأس ماله وكان عددها ثلاثة وقد بارك الله له مع انه اشتراها بالثمن المناسب، وباع الثالث وتصدق بثمنه على أرامل بني عبد المطلب.

سابعا: كل ما سدوا أمامه سبيلاً لجأ إلى غيره وهذا ما حدث عندما عرض الإسلام علي القبائل حتى دخل الأنصار الإسلام.

ثامنا: ظهر ضعف حجتهم، وظهر صدق الدعوة إلا أن العناد أعمي أبصارهم، وقد دمغتهم الحقيقة ورأوا صدق دعوته رأي العين. وما آمن منهم إلا قليل.

تاسعا: أهم ما ميز الفترة المكية إنه انتظم في صف واحد المستضعفون من العبيد مع السادة من أمثال أبي بكر وحمزه وعمر. فظهر بذلك جليا عالمية الدعوة التي شملت صهيبا من الروم وبلا لا من الحبشة كما ظهرت إنسانية الدعوة والمساواة بين الجميع فهم متساوون كأسنان المشط.

عاشرا: من الوقائع والأحداث البارزة في هذه الفترة الإسراء وبيعة العقبة الأولى والثانية، واتساع دائرة الإسلام حتى شع نوره في أطراف الجزيرة بإسلام نصارى نجران، ودخول بعض الأنصار في الإسلام.

حادي عشر: إبطال عقيدة الشرك بما نزل من القرآن في مكة، واثبات رسالة محمد، وتحدي القرآن للمشركين كما في سورة الإسراء {قل لئن اجتمعت الإنس والجن علي أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً}[1].

ثاني عشر: إحباط كيد المشركين ومكرهم الذي بيتوه في دار الندوة قبيل الهجرة.

(1) الإسراءالآيه88.

استعداد الرسول ﷺ للهجرة:

بعدما أحبط الله مكر المشركين في دار الندوة لمنع الرسول ﷺ من الهجرة بقتله خرج سراً إلى دار أبي بكر في الهاجرة ولم يبق في مكة إلا أبو بكر وعلي لأداء الأمانات التي كانت لدى الرسول لأصحابها أو من حبس أو أفتتن[1].

وكان أبو بكر إذا استأذن الرسول ﷺ في الهجرة يجيبه الرسول: لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحباً، وأدرك أبو بكر انه ربما رافق الرسول في الهجرة فابتاع راحلتين أعدهما لغرض السفر.

وعن عروة بن الزبير عن خالته عائشة أم المؤمنين إنها قالت:

كان لا يخطئ رسول الله ﷺ أن يأتي بيت أبي بكر أحد طرفي النهار إما بكرة وإما عشيا حتى إذا كان اليوم الذي أذن فيه لرسول الله ﷺ بالهجرة أتانا رسول الله ﷺ بالهاجرة في ساعة كان لا يأتي فيها. فلما رآه أبو بكر قال: ما جاء رسول الله ﷺ هذه الساعة إلا لأمر حدث، فلما دخل تأخر له أبو بكر عن سريره، فجلس رسول الله ﷺ: وليس عند أبي بكر إلا أنا وأختي أسماء، فقال رسول الله ﷺ: أخرج عني من عندك فقال: يا رسول الله إنما هما ابنتاي. وما ذاك؟ فداك أبي وأمي فقال: إن الله أذن لي في الخروج والهجرة. فقال أبو بكر: الصحبة يا رسول الله. قال: الصحبة. قالت عائشة فو الله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحداً يبكي من الفرح حتى رأيت أبا بكر يبكي يومئذ. ثم قال: يا نبي الله: إن هاتين راحلتان قد كنت أعددتها لهذا فاستأجر عبد الله بن أريقط[2] يدلهما على الطريق وكان مشركاً، فدفعا إليه

(1) تروي بعض المصادر أن الرسول ﷺ خرج والشباب من مشركي قريش حول داره ومعهم أبو جهل وهو يقول علي سبيل السخرية أن محمداً يزعم إنكم إن تابعتموه علي أمره كنتم ملوك العرب والعجم ثم بعثتم من بعد موتكم فجعلت لكم جنان كجنان الأردن، وان لم تفعلوا كان له فيكم ذبح ثم بعثتم من بعد موتكم ثم جعلت لكم نار تحرقون فيها، وخرج عليهم الرسول واخذ حفنة من تراب في يده ثم قال: أنا أقول ذلك. أنت أحدهم، وأخذ الله تعالى على أبصارهم عنه فلا يرونه فجعل ينثر ذلك التراب علي رؤوسهم وهو يتلو {يس والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين علي صراط مستقيم تنزيل العزيز الرحيم إلى قوله تعالى فأغشيناهم فهم لا يبصرون} ولم يعد رجلاً إلا وضع علي رأسه تراباً وانصرف عنهم حتى قال لهم من لم يكن معهم ما تنظرون هنا فقالوا محمداً فقال خيبكم الله. لقد انصرف ثم تطلعوا فرأوا علياً على فراشه. وهذه الرواية لا تتفق مع ما سبق بيانه في أسباب النزول من أن الله أوحى إليه بالا يبيت في داره إلا إذ جاءهم من مكان آخر للجمع بين الروايتين.

(2) رجل من بني الدئل بن بكر وكان خبيرا بالطرق ومسالك الصحراء

راحلتهما فكانتا عندهما يرعاهما لميعادهما. ولم يعلم بذلك إلا أبو بكر وأهله وعلي بن أبي طالب ﷺ [1]. وكان خروجه من مكة يوم الخميس أول يوم من ربيع الأول وقدم المدينة لاثني عشر خلت منه.

وروي أن النبي ﷺ قال حين خروجه من مكة إلى المدينة: «اللهم إنك أنت تعلم إنهم أخرجوني من أحب البلاد إلى فأسكنى أحب البلاد إليك» فيما رواه الحاكم في المستدرك. وكان مدة مقامه بعد البعثة ثلاث عشرة سنة.

واتي الرسول ﷺ وأبو بكر ﷺ غار ثور علي بعد ثلاثة أميال جنوب غربي مكة، وقبل أن يدخلاه دخل أبو بكر فاستبرأ الغار خشية أن يكون فيه من الهوام ما يؤذي رسول الله ﷺ وليفديه بنفسه[2] .

وأمر أبو بكر ابنه عبد الله أن يستمع ما يقول كفار قريش ويخبرهما ليلا وأمر عامر بن أبي فهيرة الذي كان يرعي غنم أبي بكر أن يأتيهما ليلا بالغنم ليأخذا من لبنها وكانت أسماء تشق نطاقها لتحمل في أحدهما الزاد لهما وتتمنطق بالآخر فسميت ذات النطاقين.

وجاء أبو جهل إلى دار أبي بكر وسأل عنه ابنته أسماء فقالت لا أدري عنه شيئا فلطمها أبو جهل.

ولما أيقن المشركون أن الرسول ﷺ قد خرج من مكة اقتفوا الأثر وهم أهل خبرة في ذلك ووجدوا أن الأثر انتهي عند الغار.

وإذا بنسيج العنكبوت علي فم الغار وقد باضت عليه حمامتان، فقال قائل منهم: إن هذا الغار مهجور ولم يدخله أحد من قبل أن تلد أم محمد محمدا. كل ذلك وأبو بكر يسمعهم ويقول: لو نظر أحد منهم إلى موطئ قدمه لرآنا. وهو حزين خشية أن يقع الرسول ﷺ في قبضتهم فيطمئنه الرسول ﷺ بقوله: لا تحزن إن الله معنا ما بالك باثنين الله ثالثهما.

---

(1) محمد رسول الله ص158وسيرة ابن هشام ج1 ص306 وفي البخاري روايه قريبة من هذه مع اختلاف في بعض الالفاظ.

(2) سيرة ابن هشام ج1ص307.

واثبت الله هذا الحوار في قوله تعالى {إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فانزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم}.

وبعد أن مكثا في الغار ثلاثة أيام وتأكدا من أن الأمور قد هدأت جاءهما عبد الله بن الأريقط براحلتيهما، وقدم أبو بكر أفضلهما للنبي ﷺ فسأله الرسول ﷺ عن ثمنها قائلا لا اركب بعيراً ليست لي فقال أبو بكر فهي لك يا رسول الله، فداك أبي وأمي قال: لا ولكن ما الثمن الذي ابتعتها به؟

قال كذا كذا قال: قد أخذتها به قال: وهي لك يا رسول الله فركبا وأردف أبو بكر عامر بن فهيرة خلفه. وحمل أبو بكر رضي الله عنه ماله معه، وكان نحو ستة ألاف دينار، وروي عن أسماء رضي الله عنها أن جدها أبا قحافة وقد ذهب بصره قال: والله إني لا أراه قد فجعكم بماله مع نفسه، فقالت له أسماء كلا يا أبت إنه قد ترك لنا خيراً كثيراً وأخذت أحجاراً فوضعتها في كوة البيت الذي كان أبوها يضع فيها ماله وغطتها بثوب وقالت ضع يدك علي هذا المال فوضع يده وقال: لا بأس إذا كان ترك لكم هدا فقد أحسن وفي هذا بلاغ لكم. وهو لم يترك شيئاً ولكنها أرادت أن تطمئن جدها[1].

وجعلت قريش مائة من الإبل لمن يأتي بمحمد، وطمع سراقة به مالك بن جعشم في المكافأة فخرج في أثر رسول الله ﷺ وصاحبه رضي الله عنه ، ورآه الرسول ﷺ فساخت قدما فرسه في الأرض ولم تتمكن من الحركة فقال: ادع لي يا محمد ليخلصني الله فدعا الرسول ﷺ، فتحركت به الفرس واستمر في طلبهما فدعا عليه الرسول ﷺ فساخت قدما فرسه اشد من الأولى. فقال يا محمد: ادع الله يخلصني ولن أكذب عليك هذه المرة كما كذبت في الأولى ولن أطلبكما. فدعا الرسول فإذا بالفرس تعدوا. وطلب سراقة من الرسول ﷺ أن يكتب له كتاب امن كتبه أبو بكر، لأن سراقة أدرك أن الرسول سيظهر علي قومه، ورجع فإذا لقيه أحد قال له لا تطلبوهم، فليس هنا أحد[2].

(1) سيرة ابن هشام ج1ص309.

(2) القصة في هذا المعني في البخاري وسيرة ابن هشام ج1ص309.

وفي فتح مكة رفع سراقة الكتاب إلى رسوله ﷺ فقال له ﷺ يوم وفاء وبر، فاسلم سراقة وقال: أردت أن أسأل رسول الله ﷺ فلم أتذكر شيئاً غير إنني قلت يا رسول الله: الضالة من الإبل تغشي حياضي وقد ملأتها لإبلي هل لي من أجر في أن أسقيها؟ قال: نعم: في كل ذات كبد حرىٰ اجر[1].

ومن المعجزات التي وقعت للرسول ﷺ ما رواه البيهقي عن أبي معبد الخزاعي وأشارت إليه بعض المصادر[2] فقد مر الرسول ﷺ وأبو بكر وعامر ودليلهم علي خيمة أم معبد واسمها عاتكة بنت خلف بن معد بن ربيعة بن أضرم فسألوها: هل عندها لحم أو لبن فقالت نحن في سنة جدباء. ولو كان عندنا شيء ما أعوزكم القرىٰ.

ونظر الرسول ﷺ فإذا شاة في كسر خيمتها فقال ما هذه الشاة؟ قالت شاة خلفها الجهد عن الغنم قال ﷺ: فهل بها من لبن؟ فقالت: هي أجهد من ذلك. فقال ﷺ فهل تأذنين لي أن أحلبها.

فدعا رسول الله ﷺ ومسح علىٰ ضرعها وذكر اسم الله تعالىٰ ودعا بإناء لها فحلب حتىٰ امتلأ وأرسله إليها فسقاها وسقىٰ أصحابه حتىٰ ارتووا ثم شرب وقال: ساقي القوم آخرهم. ثم حلب لها إناء تركه لها وانصرفوا.

ولما جاء زوجها: اكثم بن عبد العزي ابن عمها استغرب وجود اللبن، ولا حلوبة في البيت فأخبرته الخبر وقالت ما أراه إلا صاحب قريش ما رأيت أحسن منه خلقاً وخلقاً إذا صمت فعليه الوقار وإذا تكلم سما وعلاه البهاء له رفقاء يحفون به إن قال استمعوا لقوله وإن أمر تبادروا لأمره.

فقال لها: هذا والله صاحب قريش الذي تطلب، ولو صادفته لالتمسن أن اصحبه، ولأجهدن أن وجدت إلى ذلك سبيلا وقيل انه أسلم وهاجر.

ومروا بعبد يرعي غنماً فاستسقوه اللبن فقال ما عندي شاة تحلب غير أن هناك عناقاً

(1) المصدر السابق ص310.

(2) خاتم النبيين ج1 ص629

أخدجت «أي ولدته ناقصاً» وما بقي بها من لبن فقال له الرسول ﷺ ادع بها فمسح النبي ﷺ على ضرعها ودعا ربه حتى أنزلت فشربوا جميعا فقال له الراعي من أنت؟ فوالله ما رأيت مثلك قط فقال ﷺ وتراك تكتم علي حتى أخبرك؟ قال: نعم فقال النبي ﷺ فإني محمد رسول الله فقال الراعي. أنت الذي تزعم قريش أنه صابئ. فقال الرسول ﷺ إنهم ليقولون ذلك. قال الراعي: فاني أشهد انك نبي واشهد أن ما جئت به حق، وأنه ما يفعل ما فعلت إلا نبي وأنا متبعك فقال ﷺ: إنك لا تستطيع ذلك يومك هذا فإذا بلغك إني قد ظهرت فأتنا[1] .

ونحن المسلمين لا نستغرب هذا.

ولما سمع الأنصار بخروجه ﷺ صاروا يخرجون إذا صلوا الصبح ينتظرن قدومه حتى تغلبهم الشمس فيعودوا إلى منازلهم وكان الحر شديداً.

وفي ظهر يوم الاثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول قدم الرسول ﷺ المدينة وتسابق الأنصار لاستقباله فإذا هو جالس في ضل نخلة ومعه أبو بكر في مثل سنه، وأكثر الأنصار لم يروا الرسول ﷺ قبل ذلك فلما زال قام أبو بكر فأظله بردائه فعرفوه. واستقبلوه استقبالاً لم يحظ به أحد قبله ولا بعده: فعلا التكبير، واخذوا ينشدون:

طلع البدر علينا : : : من ثنيات الوداع
أيها المبعوث فينا : : : جئت بالأمر المطاع
جئت شرفت المدينة : : : مرحباً يا خير داع
وجب الشكر علينا : : : ما دعا لله داع

ومن الحكم والعبر:

1- حرص الرسول ﷺ على الكتمان والسرية وهو يعلم علم اليقين أن الله ناصره، ولكن أراد أن يعلمنا الاحتياط والحذر ولو أهمل لكان الإهمال سنة، ولكنه عمل ما يتفق والحرص الشديد، ومادام هذا شأنه وهو موقن بحفظ الله فكيف نهمل ونحن غير

(1) خاتم النبيين ج1ص631.

موقنين بل هو احتمال والتمويه واجب، وخداع العدو دليل على رجاحة العقل والحصافة. فقد اختبأ الرسول في مكان ليس علي الطريق المتوقع سلوكه.

2- جواز الاستعانة بأهل الخبرة ولو كانوا غير مسلمين فدليل الرحلة الاريقط مشرك، ولكنه صاحب خبرة فيجوز أن نستعين بخبرائهم في جميع المجالات. فيما لا يضر بالعقيدة.

3- الاستعانة بالعيون على العدو، أمر واجب حتى يتم الاحتياط لكل حادث، وقد كان عبد الله بن أبي بكر عيناً على المشركين يرى ويسمع ما يقولون.

4- يكرم الله رسوله بشتى ألوان الإكرام، ويحميه كل الحماية فقد نسج العنكبوت علي الغار وباض الحمام حتى لا يشك أحد في انه مهجور، وتحدى الله المشركين فحماه بأضعف شيء وأوهنه: العنكبوت، واعمي أبصارهم بذلك وهو أقرب إليهم من أنوفهم ولو شاء لصرفهم عن الغار فلم يذهبوا إليه أصلا ولكن ليكون ذلك حسرة في قلوبهم وانه ليس لهم من الأمر شيء فقد ذهبوا للغار ووقفوا علي بابه ورجعوا خائبين.

5- فدائية أبي بكر الصديق وحبه للرسول ﷺ يفوق حبه لنفسه فقد تأكد من خلو الغار من الهوام والسباع حتى إذا كان به منها شيء آذاه ونجا الرسول ﷺ ففي نجاته سلامة الدعوة أما هو فمجرد رجل.

6- قول الرسول ﷺ لأبي بكر لا تحزن إن الله معنا دليل علي أن أبا بكر ليس خائفاً على نفسه، وإنما هو حزين لما يتوقع من وقوع ما يضر بالرسول ﷺ، والحزن شعور بحدوث مكروه، أو توقعه وليس عيباً. .

7- طمأن الله رسوله ﷺ وعزاه بأن أنزل عليه قوله تعالى: {وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم}[1] قال السخاوي لما هاجر الرسول توقف ونظر إلى مكة وبكي فنزلت[2].

(1) محمد الآية 13.

(2) الاتقان في علوم القرآن للسيوطى ج1ص20.

8- ظهور المعجزات على يد الرسول ﷺ في شاة أم معبد العجفاء وتوقف فرس سراقة وشاة الراعي التي اخدجت ولا لبن، بها دليل علي صدق رسالته وان الله يكرمه فيستجيب دعوته، الأمر الذي جعل أم معبد والراعي يظهران العجب، وقد آمن الراعي أمام الرسول ﷺ، وتذكر بعض المصادر إيمان أم معبد وزوجها.

9- لم يتحد الرسول أحداً بهذه المعجزات التي هي كمعجزات الرسل السابقين، لأن معجزته الكبرى القرآن، ولم يمارسها بشكل دائم، وإنما كانت تظهر عند الحاجة، وهو يعلم أن ذلك كله من إكرام الله له وتصديق رسالته.

10- ذهاب سراقة جادا خلف الرسول ﷺ ليظفر بمائة ناقة، ورجوعه وهو أشد الناس تكتماً وحرصاً علي ألا يتبعه أحد وأخذه الكتاب دليل علي العناية الإلهية. التي جعلت الذي كان يطارده يخفي أمره، وقد صدقت فراسة الرجل في أخذ الكتاب ليكون عهداً له إذا ظهر الرسول على قومه وقد كان ذلك يوم الفتح.

11- احترام المواثيق والعهود فقد قال له الرسول ﷺ اليوم يوم بر ووفاء وأوفى له بما التزم.

12- الإخلاص هو الأساس فقد أراد الرسول أن تكون الهجرة خالصة لله فقد أبي أن يركب البعير إلا بثمن.

13- لم يطالب الرسول ﷺ الراعي الذي أعلن إسلامه بالهجرة معه عندما قال له وأنا متبعك فقال ﷺ إنك لا تستطيع ذلك يومك هذا. وفي هذا دليل على وجوب رعاية ظروف الناس وأصحاب الأعذار من المستضعفين وقد استثنى الله سبحانه وتعالى المستضعفين من العذاب في قوله تعالى {إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا فأولئك عسي الله أن يعفوا عنهم وكان الله عفواً غفوراً}[1].

14- هاجر الرسول ﷺ سراً لأن عمله تشريع فأراد أن يعلمنا الحذر والاحتياط، أما عمر فهاجر جهراً لأنه بشر لا يلزم الناس بإتباع طريقته وفعله، وليس في فعل غير المعصوم حجة.

(1) النساء الآيتان 98، 99.

15- الرسول ﷺ لا ينسي أصحابه فقد انتدب لإحضار عياش وهشام وهما مفتونان رجلا من رجاله خلصهما من الحبس والفتنة.

16- الرسول ﷺ احرص الناس على صحابته ولهذا أراد لهم أن يهاجروا قبله حتى لا يسبقهم وينجو بنفسه ويتركهم للأذى من المشركين.

17- جعل الله الهجرة نصراً في قوله تعالى {إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه اللذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا}[1].

والهجرة قد وقعت لكثير من الرسل السابقين[2].

18- ترتب علي الهجرة فتح آفاق جديدة للدعوة ونشوء دولة الإسلام والفتح، وجلاء اليهود وزوال سلطانهم، وبناء الأخوة الإسلامية بدلاً من العداوة والحروب.

19- إعلاءً لقدر الهجرة فقد جعلها الرسول ﷺ سبباً من أسباب التقديم في الإمامة فيما رواه أبو مسعود الأنصاري مرفوعاً: يؤم القوم اقرؤهم لكتاب الله فإن كانوا في القراءة سواء فأعلمهم بالسنة فإن كانوا في السنة سواء فأقدمهم هجرة، فإن كانوا في الهجرة سواء فأقدمهم سلما- وفي رواية سنا - ولا يؤمن الرجل الرجل في سلطانه، ولا يقعد في بيته على تكرمته إلا بإذنه[3].

20- علمنا الرسول ﷺ أدباً في قوله ساقي القوم آخرهم وقد استسقي الحسن ثم استسقي الحسين وعندما أتي بالماء بدأ الرسول بالحسن فقيل له: أتفضل الحسن علي الحسين يا رسول الله؟ فقال: هو الذي استسقي أولاً، وكان ذلك في أحد مجالسه ﷺ كما علمنا ضرباً من النبل وكريم الخلق فلم يؤثر نفسه ورفقاءه باللبن بل ترك الإناء مملوء للعجوز وزوجها.

21- أخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور والترمذي والحاكم وابن أبي حاتم عن أم سلمة

(1) التوبة الآية 40.

(2) نور اليقين ص59.

(3) صحيح سلم ج1 ص465.

رضي الله عنها أنها قالت: لا أسمع الله ذكر النساء في الهجرة بشيء فانزل الله {فاستجاب لهم ربهم إني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثي بعضكم من بعض} إلى أخر الآية[1]، فالله سبحانه قد تكفل بإثابة كل من هاجر ورفع منزلة المهاجرين وجعل درجتهم أعظم من درجة سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام[2] .

(1) أسباب النزول ص126

(2) أسباب النزول ص230

obeikandl.com